ملامح المجتمع السوداني في قصص:
"دومة ود حامد" للطيب صالح

أ.د. عبدالرحمن بن أحمد السبت
قسم اللغة العربية– كلية التربية بالزلفي
جامعة المجمعة

ملامح المجتمع السوداني في قصص: "دومة ود حامد" للطيب صالح

أ.د. عبدالرحمن بن أحمد السبت

قسم اللغة العربية– كلية التربية بالزلفي
جامعة المجمعة

تاريخ تقديم البحث: ٨/ ٦/ ١٤٤٢ هـ تاريخ قبول البحث: ٢٣/ ٧/ ١٤٤٢ هـ

ملخص الدراسة:

يهدف هذا البحث المعنون بـ: " ملامح المجتمع السوداني في قصص: "دومة ود حامد" للطيب صالح" إلى الكشف عن ملامح المجتمع السوداني وسماته من خلال مجموعة "ود حامد" القصصية للأديب السوداني الطيب صالح زمن الحكومة الإنجليزية، وبدايات الحكومة الوطنية التي أعقبت الاستقلال عام ١٩٥٦م وما بعدها، مع إيضاح بعض المفاهيم المتعلقة بالمجتمع، والقصة، وما تدور حوله كل قصة من القصص السبع التي تألفت منها المجموعة.

إنَّ الفنَّ القصصي له أثر كبير في إبراز خصائص أيِّ مجتمع من خلال ما يذكره السارد من أحداث ومواقف وأوصاف لأفراد المجتمع، وما يقومون به من أعمال، مما يعكس صورة أدبية/ اجتماعية لأفراد ذلك المجتمع، وما يتسمون به من خصائص متنوعة، وصفات متعددة.

وقد انتهت الدراسة إلى ذكر العديد من ملامح المجتمع السوداني – وخاصة الريفي منه – في أثناء تلك الحقبة الزمنية، وغالب هذه الخصائص يفتخر بها الرجل السوداني، ويعدها سمة تربط أفراد المجتمع بعضه مع بعض، وتصور مجتمعًا عزيز النفس، يسوده التآلف والأخوة، وأواصر المحبة بين أفراد الأسرة خاصة، والمجتمع عامة من خلال مناسباتهم الاجتماعية المتمثلة في بعض تقاليد الزواج، وتسميتهم للمولود، وبرهم بآبائهم، وعطفهم على الصغير، وبساطتهم، وعملهم في مهنة الفلاحة والرعي والتجارة، وظرافتهم في إطلاق الكنى، وجلَدهم في الحياة، وتقشفهم فيها، وعنايتهم بالثقافة، وتربية أبنائهم وخاصة في تعليمهم القرآن الكريم، وتميزهم بلباس يختلف عن المجتمعات الأخرى بلبس العمامة والثوب الواسع الفضفاض، مع وجود بعض الخصائص السلبية التي لا تشكِّل حدَّ الظاهرة، وهي موجودة في أفراد قلّة، لا يكاد مجتمع يخلو منها، ومن ذلك: استغلال الغني للفقير في البيع، وعقوق بعض الأبناء، والخمول، والتسرع في الطلاق، وانتشار بعض الحشرات والأمراض.

الكلمات المفتاحية: المجتمع، السودان، قصص، دومة، ود حامد، الطيب صالح.

The image of the Sudanese society in the stories of: Daumat Wed Hamed" – The Hill of Wed Hamed by Altayyeb Saleh

Dr. Abdulrahman bin Ahmad Alsabt
Department of Arabic Language - Faculty of Education
Zulfi - Majmaah University

Abstract:

This study, entitled: "The image of the Sudanese society in the stories of Daumat Wed Hamed" – The Hill of Wed Hamed by Altayyeb Saleh, "A thematic approach", aims to reveal the characteristics of the Sudanese society during the rule of the English and at the beginning of the national government, which followed the independence in 1956. Moreover, the study aims to clarify some concepts related to the community, the story, and what each of the seven stories in the collection revolves around .

The story art has a significant impact on highlighting the characteristics of any society through the narrator's description of the events and attitudes of the community members, reflecting the literary / social image and various characteristics of that community.

The study concluded by mentioning many characteristics of the Sudanese society, the rural one in particular, during this period. In fact, The Sudanese are proud of most of these characteristics that depict the kind, merciful relationships not only among the members of the family but also the whole society. These characteristics are represented in some social events such as the traditions of marriage, naming the newborn, taking care of the parents, kindness to the young, simplicity, farming, grazing, trading, nick-naming, being patient in life, paying attention to culture, bringing up children and teaching them the Holy Quran and dressing in a way that distinguishes them from other societies, especially in wearing the turban and the wide loose thobe (garment). However, some negative characteristics do not constitute a phenomenon, as they hardly exist, such as: exploitation of the poor, the disobedience of some children, lethargy, the rush to divorce, and the spread of some insects and diseases.

key words: Community - Sudan - Stories – Daumat (Hill) - Wed Hamed - Altayyeb Saleh

مقدمة:

تعدُّ القصة القصيرة من الأجناس السردية التي لاقت استحسانًا كبيرًا لدى المتلقي في العصر الحديث، إذْ يستطيع القارئ أن ينجز قراءته للقصة ويعرف هدفها في وقت قصير.

ومن أشهر القصَّاص في العصر الحديث الأديب السوداني الطيب صالح(١)، فقد أنتج سبع قصص قصيرة تحت مسمى "دومة ود حامد"، وسأعمد إلى دراستها تحت عنوان أسميته: "ملامح المجتمع السوداني في قصص: دومة ود حامد، للطيب صالح"، من خلال الرجوع إليها في الأعمال الكاملة للطيب صالح، والصادرة عن مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي بالخرطوم، عام ٢٠١٠م.

(١) ولد الطيب صالح في إقليم مروى شمال السودان عام ١٩٢٩م، وتوفي ١٨ فبراير عام ٢٠٠٩م في لندن، وعاش طفولته في ذلك الإقليم، ثم نزح إلى الخرطوم لمتابعة دراسته في كلية غرودن (جامعة الخرطوم حاليا)، ونال درجة البكالوريوس، ثم سافر إلى لندن، وتابع دراسته العليا في موضوع الشؤون الدولية، وهناك بدأ عطاؤه الأدبي يتفتح، فكتب القصص القصيرة، ونشر بعضها في المجلات، وفاز بجائزة الرواية العربية للعام ٢٠٠٥م، كما أُطلق عليه لقب: "عبقري الرواية العربية"، وتتجلَّى في حياته سمات ثلاث، هي: البساطة، والثقافة، والأصالة (انظر: د. إبراهيم خليل، تأملات في السرد العربي، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص١٧١- ١٧٢، وأحمد سعيد محمدية، لمحة عن الطيب فنانًا وإنسانًا، ضمن كتاب: الطيب صالح عبقري الرواية العربية، لمجموعة من الكتَّاب العرب، دار العودة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م، ص٧- ٨).

وقد بحثت عن دراسات سابقة لهذه المجموعة القصصية فلم أعثر إلا على إضاءات مختصرة في أثناء الحديث عن سيرة الطيب صالح ومؤلفاته، وذلك في كتاب الدكتور أحمد محمد البدوي الموسوم بـ: "الطيب صالح سيرة كاتب ونص"، من خلال إشارات سريعة عامة للمنجزات الفنية (ومنها القصصية) للطيب صالح، أما عن دراسة تختص بملامح المجتمع السوداني من خلال تلك المجموعة أو غيرها من القصص السودانية فلم أعثر على شيء من ذلك، مما جعل البحث في هذا المجال متاحًا أمامي لإماطة اللثام عن ملامح المجتمع السوداني وما يتصف به – وخاصة الريفي منه– في حقبة زمنية معينة من خلال نظرة الطيب صالح في مجموعته القصصية، معتمدًا المنهج الوصفي التحليلي في الدراسة.

وقسمت البحث إلى مقدمة، ومهاد نظري، تحدثت فيه عن: مفهوم القصة القصيرة، وحديث عن مجموعة: "دومة ود حامد" القصصية، ثم المبحث الأول: وتحدثت فيه عن الملامح الاجتماعية المحمودة، والمبحث الثاني: وفيه حديث عن الملامح الاجتماعية المذمومة، ثم جاءت الخاتمة، فثبت للمصادر والمراجع.

مهاد نظري

القصة القصيرة هي: مجموعة من الأحداث التي يرويها الكاتب بأسلوب يعتمد على الإيحاء دون الخوض في التفاصيل، وتتناول حادثة واحدة أو أكثر، تتعلَّق بشخصية واحدة أو شخصيات مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفاتها في الحياة، ويكون نصيبها في القصة متفاوتًا من حيث التأثُّر والتأثير، ويضع الكاتب النهاية فجأة في لحظة حاسمة(١)، وهذا التعريف يركّز على الإيحائية في التعبير، والإشارة السريعة لبعض الأحدث في القصة، وعدم الإسهاب في تفاصيلها، ولا فرق بين كونه حدثًا واحدًا، أو مجموعة من الأحداث، كما أنَّ ذلك قد يكون لشخص واحد أو لمجموعة من الشخصيات، ولكنَّ العبرة في الإيجاز، فالإيحاء التعبيري شرط فيها، وتأتي الخاتمة فيها مفاجئة دون مقدمات تشعر القارئ بقرب النهاية.

وعرّفها بعضهم بأنها "نصٌّ أدبيٌّ نثريٌّ يصوّر موقفًا أو شعورًا إنسانيًّا تصويرًا مكثفًا له أثر أو مغزى"(٢)، وهذا التعريف يركز على نوع الجنس الأدبي، معتمدًا على تكثيف المعنى ليحمل دلالات عدَّة، وذلك لمحدودية المساحة التي أمام المؤلف لإيصال هدفه إلى المتلقي.

ومن التعريفات التي حاولت أن تلمَّ بشتات عناصر القصة التي تقوم عليها أنها "تجربة أدبية تصوِّر لحظة عابرة في حياة (متخيلة) لشخصية مأزومة

---

(١) انظر: أ.د حلمي محمد القاعود، تطور النثر العربي في العصر الحديث، دار النشر الدولي للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، ص١٩٢.

(٢) فؤاد قنديل، فن كتابة القصة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٣٥.

– أو مجموعة شخصيات – تعاني من مشكلةٍ إنسانية، لا تقدر على حلّها خلال فترةٍ زمانية محدَّدة، وفي بيئةٍ مكانية معروفة، وتستخدم (النثر) أداة للتعبير السردي"[1]، فهذا التعريف يلخِّص العناصر الفنية في بناء القصة القصيرة المتمثلة في: الحدث، والشخصية، والبيئة الزمانية، والمكانية، واللغة.

ومن خلال ما تقدَّم فإنَّ القصة القصيرة هي: فنٌّ نثريٌّ قصير، يحكي حدثًا، أو مجموعة من الأحداث حول مشكلة معينة لشخص أو لمجموعة من الشخصيات في زمن محدَّد، ومكان معين، يعتمد من خلاله السارد على أسلوبه الخاص الذي يبتعد فيه عن الحقيقة إلى شيء من الخيال في حلِّ المشكلة، سعيًا منه إلى توظيف إمكانياته الأسلوبية والعقلية في إيصال رسالته الأدبية.

وتتألف المجموعة القصصية الموسومة بـ"دومة ود حامد" من سبع قصص قصيرة، وهي: (نخلة على الجدول، حفنة تمر، رسالة إلى إيلين، دومة ود حامد، إذا جاءت، هكذا يا سادتي، مقدمات أغنية حب)، وقد أسمى الطيب صالح هذه المجموعة بنفس مسمى إحدى هذه القصص، وهي "دومة ود حامد"، التي تمثّل أكبر عدد صفحات في المجموعة (١٥) صفحة، وهي عبارة عن قصة تتحدَّث عن قرية صغيرة تقع شمال السودان، ويعتقد أهلها أنَّ هناك أسطورة تحكي عن رجل صالح دُفن فيها، وعندما حاولت الحكومة الإنجليزية قطع شجرة "الدومة" رفض أهالي القرية، ووقفوا في وجه المسؤولين

(١) د. طه عمران وادي، القصة بين التراث والمعاصرة، نادي القصيم الأدبي، بريدة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، ص١٩١.

لمنع إنشاء أيّ مشاريع زراعية أو تطويرية قد تضرّ بالدومة، وتدور أحداثها في هيئة حوار بين شاب سيغادر أرض الدومة، وشيخ طاعن في السنِّ من أهل الدومة، وينقل السارد رؤيته في إمكانية التقاء الأجيال الحديثة والقديمة معًا والموازنة بينهما في سبيل تطور البلد وعدم الوقوف في تقدُّم القرية الصغيرة بحجة أنهم وجدوا السابقين يفعلون أمورًا ولا بدَّ للأجيال المتأخرة أنْ يسيروا على نهج الأقدمين، فما الذي يضير أبناء المجتمع لو بقيت الدومة في مكانها، وتمَّ إنشاء المشاريع التنموية قربها؟! وتحقّق بذلك أمران: تطوير مجتمعهم، والحفاظ على تراثهم.

أما بقية القصص التي تتألف منها المجموعة، فإنَّ الطيب صالح يتحدَّث في قصة "نخلة على الجدول" عن طمع أصحاب الأموال الكبيرة، وجشعهم أثناء بيع محصول التمر، والتفاوت الاجتماعي بين طبقتين: طبقة الأغنياء ويمثّلهم التاجر حسين، وطبقة الفقراء من الفلاحين القرويين ويمثّلهم الشيخ محجوب، ومحاولة استغلال الطبقة الأولى للثانية. وفي قصة "حفنة تمر" يتحدَّث القاص عن شخص اسمه مسعود خسر أرضه الكبيرة بسبب كثرة زواجاته، فهو يبيع بين الفينة والأخرى جزءًا من أرضه الواسعة حتى يستطيع أن يبحث عن زوجة جديدة، وفي المقابل هناك رجل آخر يجاور مسعودًا في المزرعة، وكان يشتري منه أرضه كلما أراد أنْ يبيعها حتى وصلت أملاكه ثلثي مزرعة مسعود، مستغلًا بذلك عبث جاره بكثرة الزواجات، وإشباع رغباته دون أيِّ تفكير في مسؤوليات الزواج، وتبعات الطلاق الذي يلجأ إليه كلَّما عنَّت له رغبة في زوجة جديدة. أما قصة "رسالة إلى إيلين" فهي تحكي قصة

حبٍّ بين رجلٍ شرقي عاش في السودان وفتاة غربية، وعن العلاقة بين الشرق والغرب بصورة رمزية. وفي قصة "إذا جاءت" يتحدَّث القاص عن شركة سياحية عالمية في الخرطوم تحت مسمى "المكتب العالمي لفنون السياحة"، وعن علاقة الموظفين فيما بينهم، والمشكلات التي تحدث في العمل، وفيها إشارة إلى عدم ارتياح الرجل السوداني إلى الغرباء في العمل. وأما قصة "هكذا يا سادتي" فتحكي قصة رجل عربي يعيش في الغرب وله تقاليده الخاصة به، وتبين موقف بعض الغربيين وسخريتهم من العرب. وأما القصة السابعة والأخيرة ففيها بعض المواقف التي ذكرها السارد، وخاصة فيما يتعلق بالمرأة، وحب الرجل لها في قصص قصيرة، ومواقف متفرقة، وخاصة مشكلة الحياة العاطفية للمغتربين السود في لندن.

أما تاريخ نشر القصص، فيعود نشر القصة الموسومة بـ: "نخلة على الجدول" إلى عام ١٩٥٣م، والقصة الثانية "حفنة تمر" إلى عام ١٩٥٧م، وأما "دومة ود حامد" الرابعة في المجموعة فيعود تاريخ نشرها إلى ١٩٦٠م[١]، كما نُشرت القصة الأخيرة الموسومة بـ"مقدمات" عام ١٩٦٦م[٢]، وأما البقية فلم أعثر على تاريخ نشرها إلا أنها تحكي شيئا عن الواقع المجتمعي السوداني، ويظهر أنها بعد الاستقلال مباشرة، بناء على ترتيبها في المجموعة القصصية،

(١) انظر: أحمد السماوي، في نظرية الأقصوصة، مطبعة التسفير الفني، ٢٠٠٣م، هامش ص١٣٥-١٣٦.

(٢) انظر: مختار عجوبة، القصة الحديثة في السودان، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، هامش رقم ٢، ص٢٢٢.

وقد كانت السودان تعيش تحت ظلِّ الاستعمار منذ عام ١٨٩٨م، وحصلت على استقلالها السياسي عام ١٩٥٦م، فجاءت بواكير النهضة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية نتيجة الانفتاح على القرن العشرين، والاعتماد على سواعد شباب البلد في الانطلاقة بمجتمعهم نحو النمو والازدهار(١).

وتشكِّل هذه المجموعة القصصية أحد نماذج القصة السودانية الحديثة التي يحرص كتَّابها على تقديم صورة عن واقعهم المحلي، وإظهار ما فيه من عادات وتقاليد، فتظهر فيها رؤيتهم الواقعية، ومحلِّيتهم الشديدة مع ما في ذلك النتاج من نضجٍ على مستوى البناء الفني للعمل السردي من خلال تجاربهم الإنسانية التي تتَّسم بقوة التأثير، وحميمية التفاعل(٢).

وتحتوي مجموعة الطيب صالح القصصية والموسومة بـ"دومة ود حامد" على العديد من ملامح المجتمع السوداني – وخاصة الريفي منه – خلال الحقبة الزمنية التي ألّف مجموعته القصصية فيها، وسأدرس أبرز هذه الملامح والخصائص من خلال المبحثين القادمين.

(١) انظر: عبدالعزيز حسين الصاوي، أزمة المصير السوداني (مناقشات حول المجتمع والتاريخ والسياسة)، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص٦٧.

(٢) انظر: د. طه عمران وادي، القصة بين التراث والمعاصرة، ص١٠٤.

المبحث الأول: الملامح الاجتماعية المحمودة

تسود المجتمعات ملامح اجتماعية محمودة، وتتفاوت من مجتمع لآخر، ويحاول الغيورون على مجتمعاتهم أن تكون أنموذجا يحتذى به، فيشاركون في إصلاح مجتمعهم، وتعديل ما في سلوكيات أفراده من ملامح سلبية، والأديب برسالته يشجع على الممارسات السليمة، ويحث أفراد مجتمعه على الامتثال بها، ويصور ذلك في شعره ونثره، والطيب صالح أحد أولئك الذين صوروا مجتمعهم وما فيه من ملامح إيجابية، يأمل أن تكون سمات خير وفلاح لبني قومه، يحث على التمسك بها، ويساهم في إرسال سهامه الأدبية تجاهها بأسلوبه وطريقته الأدبية الخاصة، ومن ذلك ما يلي:

أ- التكاتف الاجتماعي:

يتميّز المجتمع السوداني بتكاتف أفراده وتعاونهم، وذلك في مناسبات الفرح والحزن على حدٍّ سواء، ومن المناسبات التي ذكرها الطيب صالح في مجموعته القصصية وقد ظهر فيها تكاتف أبناء المجتمع السوداني: تكاتفهم في مناسبات الزواج، وتعاونهم مع بعض، فالشيخ محجوب عندما بدَّل الله حاله من الفقر إلى الغنى أصبحت يده سبَّاقة إلى مدِّ يد العون لأفراد مجتمعه، والوقوف معهم في مناسباتهم، وكان يفوق الآخرين بذلك، يصور السارد هذا الكرم بقوله: "وحينما كان النَّاس يتبرَّعون في الأعراس بخمسة قروشٍ كان يتبرَّع هو بعشرة، وبزجاجة مليئةٍ من سمن الضَّأن النقيّ، وكيلة من أجود أنواع التمر

"القنديل"[1]، وفي ذلك إظهار لشكر نعمة الله على محجوب، فقد كان فقيرًا فأبدل الله فقره غنى، مما جعله يسهم في تطور مجتمعه، ويتصدَّق على المحتاجين منهم بضعف ما يتصدَّق به الآخرون، ولم يقف الأمر على مشاركته لهم بأيّ صدقة وحسب؛ بل إنها من أجود الأصناف وأطيبها؛ امتثالا لقول الله سبحانه: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾سورة آل عمران.

وعندما يعود المسافر المغترب إلى وطنه تجد المجتمع بجميع أطيافه يستقبلونه، ويهنّئون أهله بالسلامة، فليس الاستقبال والفرح خاصًّا بأسرته الصغيرة المكونة من أم وأب؛ بل المجتمع أسرة واحدة مترابطة، يشاركون فرح بعضهم بعضًا، وحتى "النساء اللائي جئْنَ يهنّئْنَ أمه بوصوله سالماً من البلد البعيد، كلهنَّ قريباته. فيهنَّ العمَّة والخالة وابنة العمّ وابنة الخالة. وظلَّ كذلك برهة. ثم جاء أبوه ومعه حشدٌ من الرجال. كلُّهم أقرباؤه. سلَّموا عليه وجلسوا. جِيء بالقهوة والشَّاي وعصير البرتقال وعصير الليمون. شيءٌ يشبه الاحتفال"[2]. ولا شكَّ أنه الاحتفال عينه، احتفال بعودة ابن المجتمع إلى مجتمعه، فالكلُّ في بهجة وسرور، والجميع يعدُّون هذا الابن ابنهم، فقد عاش بينهم، وتطبَّع بطبائعهم، وشاركهم مناسباتهم، فهو فرد من أفراد أسرة المجتمع الكبير، وليست اللحمة الاجتماعية مقتصرة على الرجال بعضهم مع بعض؛

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة ، مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي، أم درمان، السودان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص٤١٨.

(٢) السابق، ص٤٣٢.

بل إنَّ النساء – أيضًا – يتكاتفن، ويشاركن بعضًا في مناسبات الفرح والحزن؛ تعبيرًا عن الشعور المشترك بين أفراد المجتمع، فهذه الصفة يمتاز بها الشعب السوداني بجميع أطيافه، فمن الملاحظ على علاقاتهم الاجتماعية قوة الترابط بينهم، ووقوفهم مع بعض، سواء أكان في مناسبات الفرح أو الحزن، وسواء أكان ذلك داخل البلد أو خارجه، وفي ذلك تبرز روح التوافق الاجتماعي، والتفاعل بين أبناء المجتمع السوداني في حياتهم الاجتماعية والإنسانية، وقد استمر هذا الوضع الاجتماعي حتى أيامنا هذه، فتجد اللحمة القوية، وأواصر الترابط سائدة بين الأخوة السودانيين، وخاصة في غربتهم عن وطنهم الأم.

ب – البر بالآباء والأجداد:

من الخصائص الحميدة في المجتمع السوداني برُّ الأبناء بآبائهم وأجدادهم، وفي ذلك امتثال لقول الحقِّ سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) ﴾سورة الإسراء.

ويصوِّر السارد في إحدى القصص برَّ أحد أبناء المجتمع السوداني بجدِّه الكبير في قوله على لسان ذلك الابن الصغير: "كنتُ أعرفُ متى يريدني جدِّي أنْ أضحكَ ومتى يريدني أنْ أسكتَ، وكنتُ أتذكَّر مواعيدَ صلاته،

فأُحضر له "المصلاة" وأملأُ له الإبريق قبل أنْ يطلبَ ذلك منّي"[١]، وهذا هو البر الحقيقي، وهو معرفة ما يريده الوالد أو الجد وتحقيق طلبه قبل أن يطلبه، وخاصة في اختيار الزمن المناسب، ومباشرة رغبته دون تأخير أو مماطلة، مما ينتج عنه الراحة النفسية لهذا الرجل الكبير، وهي ضرورية له؛ لينعم بعيشة هادئة دون ضغوط تكدِّر عليه حياته، وهو في سنه الكبير الذي يأنس بأمور قد لا يدركها الابن إلا عندما يبلغ مبلغه من العمر.

ومن صور البرِّ أن يعرف الولد ما يعجب والده، ويودّ سماعه ورؤيته، فيقوم بتحقيق طلبه، يقول السارد على لسان الصبي – أيضًا –: "كان يلذُّ له في ساعات راحته أنْ يستمعَ إليَّ أقرأ له من القرآن بصوتٍ منغَّم، وكنتُ أعرف من وجه جدِّي أنه أيضًا كان يطربُ له"[٢]، فالسارد ينتقي الألفاظ التي تعبِّر عن راحة نفسية شديدة للوالد، وهو يرى فلذة كبده يبرُّ به كمال البر، فهناك مجموعة من الكلمات التي تدخل البهجة والسرور على هذا الوالد: "يلذُّ، راحته، يستمع، القرآن، صوت منغَّم، يطرب"، وهذه مجموعة ألفاظ تعود إلى حقل دلالي، وهو الشعور بالراحة، والطمأنينة النفسية، وقد كان الطفل لماحًا بصيرًا فهو يستنتج بفراسته أُنْس جده، وراحته وطمأنينته التي تتمظهر في سماعه للقرآن الكريم، وتلذّذه به.

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٤.

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

كما أنَّ الفتيات يتميَّزْنَ بقربهن من والديهن، وعطفهن عليهما، ويعرفن حقَّ الأبوة، فقد كانت ابنة الشيخ محجوب تبرُّ والدها وتعطف عليه، وقد افتقد هذا العطف، وتلك الشفقة الحانية عندما تزوجت وسافرت مع زوجها إلى أقاصي الصعيد في الجزيرة(١).

ت – العطف على الصغير ومحبته:

يعدُّ المجتمع السوداني مجتمعًا عطوفًا، يسوده التراحم والتعاطف بين أفراده، وخاصة إذا كانوا صغارًا، فلا تجد فرقًا بين الكبير والصغير إلا التقدير للكبير والاحترام له، والعطف على الصغير والشفقة عليه، وهذا من الهدي النبوي الشريف، ومن الامتثال لقول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "ليس منَّا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا"(٢).

ويصوِّر السَّارد عطف الكبار على الصغار من خلال ملاطفتهم ومداعبتهم، فيقول على لسان صبيٍّ منهم: "لا بدّ أنَّني كنتُ صغيرًا جدّا حينذاك، لست أذكرُ كمْ كان عمري تمامًا، ولكنَّني أذكر أنَّ الناس حين كانوا يرونني مع جدِّي كانوا يربتون على رأسي، ويقرصونني في خدِّي، ولم يكونوا

(١) انظر: الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٦.

(٢) الترمذي، الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، حقّقه وخرج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط، هيثم عبدالغفور، دار الرسالة العالمية، دمشق، الجمهورية العربية السورية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، (باب ما جاء في رحمة الصبيان)، ج٤، ص٤٨.

يفعلون ذلك مع جدّي"[1]، فهذا الوصف الذي يذكره السارد، والصورة التي يرسمها من قرص الخدِّ، والضرب الخفيف على الرأس إنما هي من باب ملاطفة الصغار، والظرافة معهم، والعطف عليهم، والإعجاب بهم، وهي من القيم الحميدة التي تعوَّد عليها أبناء المجتمع السوداني تجاه أبنائهم الصغار على وجهٍ خاص دون كبارهم، وقد أدرك ذلك الصبي عندما نفى توجيه تلك الحركات لجدِّه الكبير، واقتصارها عليه، وفي ذلك إيحاء إلى خصوصية توجيه هذه المداعبة لصغار السنِّ دون الكبار.

ويتجلَّى الحبُّ والاستلطاف لهؤلاء الصغار لحظة رؤيتهم وهم يؤدُّون أعمالًا جليلة، يستحسنها الكبار، ويشجعون من خلالها الصغار؛ تحفيزًا لهم وتقديرًا، وتأييدًا على فعلهم لهذه الأخلاق الحميدة، وتربيتهم على الخلق النبيل والعمل الصالح، يقول القاص على لسان الصغير: "وكان الشَّيخ يطلب منِّي دائمًا أنْ أقفَ وأقرأ سورة الرحمن، كلَّما جاءنا زائر. وكان الزوَّار يربتون على خدِّي ورأسي، تمامًا كما كانوا يفعلون حين يرونني مع جدِّي"[2]، ويبدو أنَّ اختيار السارد لسورة "الرحمن" لما فيها من آيات متشابهة، ولا يتقنها إلا حاذق في الحفظ، فإذا كانت من طفل صغير، فإنها تثير إعجاب المستمع، وتلفت انتباهه، ويكون الإعجاب وليد اللحظة مع قارئٍ صغير يقوم الكبار على تحفيزه وتشجيعه بالاستظراف، والضرب الخفيف على رأسه، وقرص خده، كناية عن الإعجاب والمحبة والتقدير لهذا الناشئ في رحاب القرآن

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٣.

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

الكريم، وقد اختار الشيخ هيئة الوقوف في أثناء قراءة الطفل الصغير لما في ذلك من إظهار له، وزيادة في تشجيعه على عمله الحسن، وإعطاء المناسبة العناية والتقدير، فالقراءة وقوفًا أمام الجمهور تعطي هيبةً للموقف، وعظمة له، مما يكون له الأثر الأكبر في زيادة تشجيع الصغير لمقابلة الآخرين، وعدم الرهبة منهم، مكتسبًا الثقة في نفسه، والقدرة على القراءة دون أيِّ ارتباك، أو خوف من أحد.

ث – تسمية المولود:

من خصائص المجتمع السوداني التي ذكرها الطيب صالح في مجموعته القصصية: "دومة ود حامد" تسمية بعض المواليد بأسماء مَنْ كانوا ذا فضل على والدي الطفل أو أحدهما، وهذه إحدى الصفات النبيلة التي يتحلَّى بها أبناء المجتمع السوداني، وهي صفة من صفات الوفاء التي درجوا عليها تجاه أصحاب الفضل ممن يملكون قلوبًا كبيرة تراعي أفراد المجتمع، وتعطف عليهم.

ومما أورده الطيب صالح في هذا الشأن، وإطلاق اسم المولود على من يستحق أن يُتسمَّى باسمه: (آمنة)، والتي جاءت في قصة محجوب عندما رزقه الله بنتًا أسماها على جدته التي كانت تعتني به، وترأف بحالته، يصوّر ذلك السارد بقوله: "وفي العام التالي ولدتْ زوجته بنتًا أسماها آمنة تيمُّنًا بمقدمها، ووفاءً لذكرى جدَّته التي كانت تعطف عليه من بين أهله جميعًا"(١)، وفي اختيار هذا الاسم من بين أسماء النساء إشارة من السارد وإيحاء منه إلى وفاء

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٦.

محجوب لجدّته التي كانت رحيمة به، عطوف عليه في أثناء صغره، عندما كان جميع أقربائه مشغولين بأنفسهم، ولم يكن هناك أي اهتمام أو اعتناء به، كما أنَّ في ذلك تيمّنًا باسم الجدة (آمنة)، ففي اختياره إيحاء بفألٍ قادم للشيخ محجوب بأن تكون هذه المولودة شبيهة بالجدة التي تملك صفات عالية، وأخلاقًا نبيلة، ولعل في الاسم ما يشي بدلالة المعنى، فالعائل لهذه الأسرة يرجو أمنًا وأمانًا له ولأسرته في حياتهم اليومية من خلال فأله بالمولودة الصغيرة، وبانتظار أمل مشرق يسعد أفراد الأسرة الصغيرة جميعًا.

ج – حقوق الفرد الاجتماعية:

تحدَّث السارد في مجموعته القصصية عن بعض الحقوق التي يتمتَّع بها الفرد السوداني دون مقابل مادي، فذكر أنَّ من أهمِّ هذه الحقوق أنْ يتمتَّع المريض بالعلاج في المستشفيات الحكومية مجانًا، وهذه من الخدمات التي تقدِّمها بعض الدول لأبنائها في المجال الصحي؛ تخفيفًا عنهم، وعن الأعباء المعيشية التي تكهل عاتقهم، وخاصة مَنْ كان ذا دخلٍ محدود منهم.

وقد ذكر ذلك القاص في أثناء حديثه عن بعض الظروف الصحية التي يعاني منها المجتمع السوداني، وخطورة بعض الحشرات المنتشرة هناك، سواء أكان ذلك في فصل الصيف أم الشتاء، يقول في بيان تلك الأحقية: "إذا مرضتَ فمن حقِّك أنْ تعالجَ في المستشفى"[1]، وهو لا يتشاءم بالمرض،

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٣٦.

ولكنه يذكره مقرونًا بأسلوب الشرط، ليدرك – لحظتئذ – حقه في العلاج المجاني.

ومن حقوق الفرد الاجتماعية: التعليم المجاني للأبناء، وإدخالهم المدارس النظامية دون مقابل مالي، وهو من الحقوق المجتمعية الموجودة في بعض الدول ويشجعها المجتمع السوداني ويؤكّد عليها، يقول السارد في بيان هذه الأحقية: "وإذا كان لك ابنٌ فمن حقِّه أنْ يتعلَّم في المدرسة"(١)، وهذه من الخصائص الحسنة لهذا المجتمع أنْ يقدِّم لهم التعليم دون مقابل مالي، وتشجيع أبناء المجتمع على الالتحاق بالمدارس، ومحاولة تطور المجتمع من الناحية العلمية والفكرية، والنهضة بالبلاد في شتى المجالات، فلم تنهض أمة إلا بتسلح أبنائها بسلاح العلم، والتقدم المعرفي.

ويأتي التركيز على هذين الأمرين – العلاج والتعليم – من قبل السارد لأهميتهما لدى أفراد المجتمع، فكلُّ فرد يعنيه أمر تعليم أولاده، وإلحاقهم بالتعليم المجاني كحقٍّ من حقوقهم الاجتماعية؛ لإنقاذهم من داء الجهل وخطورته، وليكونوا على معرفة بعلوم القراءة والكتابة وغيرها من العلوم والمعارف التي تساعد الفرد على تطور مهاراته، وتنمية معارفه ومداركه، ومحاولة تقديم ما يمكن أن يقوم به تجاه تطوير مجتمعه وتقدمه، فلم تنهض أمة إلا بتقدمها في العلم، كما أنَّ المريض يحتاج إلى علاج، وقد يكون عاجزًا عن

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة ، ص٤٣٦.

توفير المال، وخاصة لدى طبقة الفقراء، فضمان العلاج المجاني صفة اجتماعية تقدمها الدولة لأفراد المجتمع السوداني.

ح – الحياة الخشنة:

يتميز الرجل السوداني – وخاصة الريفي – بالتحلّي بالصبر، ومقاومة مشقة الحياة الاجتماعية التي يمرُّ بها، وخاصة في خشونة العيش، وهذا أمر محمود بأن يتعوَّد الإنسان على مقاومة ظروف الحياة وقسوتها، وخشونة العيش، فالنعم لا تدوم، وإنما قد تنقلب الحال وتتغير، ومن خلال النصائح التي يقدّمها أحد كبار السنِّ لأحد زوَّار السودان فإنه يوجِّه له نصيحة يقول فيها: "سترحلُ عن بلدنا غدًا، أنا واثقٌ من ذلك، وحسنًا تفعل، ما لَكَ ولهذا العناء؟ نحن قومٌ جلودنا تَخينة، ليستْ كجلودِ سائر الناس. لقد اعتدنا هذه الحياة الخشنة، بلْ نحن في الواقع نحبُّها، لكنَّنا لا نطلبُ من أحدٍ أنْ يجشمَ نفسه مشقَّة الحياة عندنا"(١)، فهذه صفة من صفات مجتمع القرية التي اعتاد عليها أفرادها، وهم يحبون هذه السمة ولا يتضجرون منها، فحياة البذخ والإسراف لا يعرفونها، فهي ليست من عاداتهم وتقاليدهم، وقد اتخذ السارد أسلوب الاستفهام الإنكاري، وكذلك الوصف؛ لإقناع مَنْ تمَّ توجيه الخطاب له، من ذكر بعض الصفات الجسدية التي يتمتع بها أفراد المجتمع السوداني وخاصة مجتمع القرية، مما قد لا توجد فيمن وجِّهت له النصيحة، بالإضافة إلى تعوّد السودانيين عليها؛ بل ومحبتهم لهذا النوع من الخشونة الاجتماعية،

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة ، ص٤٣٦.

وقد يكون السارد في ذلك معتمدًا على أسلوب الرمز، والاتكاء على الإيحاء الدال على رفض الشرفاء من أبناء السودان تدخُّل الغرباء فيما يتعلق بحياتهم الخاصة، وعدم رضاهم عن ذلك، ورغبتهم في مغادرة البلد سريعًا، فلم يطلب منهم أحد القدوم إليه، والعيش في أرجائه.

ويتحلَّى الفرد السودانيُّ بقوة البأس، وعدم الجزع عند المصائب، وخاصة عند إصابتهم بمرض، أو تعرضهم لأيِّ أذى وخطورة، ويصوِّر الكاتب على لسان الرجل الكبير كيف يتحمَّل السودانيون بعض الظروف القاسية، وكيف يتعاملون معها، ويصبرون على أوجاعها: "نعم يا بنيَّ، نحن قومٌ لا نعرفُ دروبَ المستشفيات في الأمور الصَّغيرة، كلدغاتِ العقارب، والحمَّى، والفلكِّ، والكسر، نلزم الأسرَّة حتى نُشفَى"(١)، وهذه مجرد أمثلة سريعة على ما يصيبهم من أذى ويصبرون عليه ساقها الكاتب لإيضاح مدى قوة البأس، ومدى الصبر والجلد الذي يتصف به الرجل السوداني، مع إشعار هذا الرجل المسن للسائح بأنَّ هذه الأمور لا تعدو كونها صغيرة، وهذا أسلوب رمزي، وفيه إيحاء إلى قوة تحمُّل مشاق الحياة، والصبر عليها، وإيحاء إلى جزع بعض المجتمعات الأخرى، وقيامها بالتردد على المستشفيات؛ رغبةً في الشفاء عند أيِّ ملمَّة وإن كانت صغيرة!

ويسوق الكاتب قصة وقعت للرجل المسنِّ، فيقول على لسانه: "مرة كنتُ أعمل في حقلي فعضَّ شيءٌ إصبعي، هذا الإصبع الخنصر. فانتصبتُ قائمًا

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٤٤.

وتلفَّتُ أبحثُ عن العشب، فإذا ثعبان لابد، أحلف لك إنه في طول ذراعي هذا، فمسكته من رأسه وسحقته بين إصبعي، ثم عضضتُ إصبعي الملدوغ ومصصتُ منه الدم، وأخذتُ حفنة من التراب فدلكته بها!"[1]، وهذه القصة التي يذكرها السارد تعبِّر عن صورة الرجل السوداني الصلب، الذي تعوَّد على قسوة المعيشة، وقدرته على تحمّل الحياة الخشنة، ومقاومة الظروف الاجتماعية الصلبة، ولا غرو في ذلك، فهو أمر مشاهد على أرض الواقع.

خ – بساطة الإنسان السوداني:

يتميز الفرد السوداني – وخاصة الريفي – بالبساطة، والنظر إلى ما يتعلَّق بالمجتمع نظرة قريبة، ويعنيه ما يشاهده أمامه على أرض الواقع دون التعمق في المستقبل وما تخفيه الأمور من تطور منشآت بلده، فعندما أرادت الحكومة أن تقيم مشروعًا زراعيا في موضع "الدومة" ثاروا عليه، ورفضوا هذا المشروع الذي تقيمه الحكومة في عهد الحكم الأجنبي بحكم أنَّ إقامته ستدمّر الموروث المجتمعي، فهذه الدومة تعدُّ رمزًا اجتماعيًا لهم، في ظلّ خرافة وأساطير يعتقدها بعض أفراد المجتمع، مما جعل الحكومة تستجيب لرأيهم، ولا تقيم لهم مشاريع زراعية تساعد على تنمية مجتمعهم وتطوره، وتسعى إلى جلب الأرزاق والخيرات لهم.

وعندما أرادت الحكومة في أول العهد الوطني أن تقيم محطةً تقف عندها الباخرة، وقد تمَّ اختيار دومة "ود حامد" لتكون مكانًا ترسو فيه هبَّ أفراد

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٤٣.

المجتمع الريفيّ للوقوف ضدَّ هذا التطوير؛ بل إنهم برَّروا عدم رغبتهم بهذا العمل بكل هدوء وطمأنينة قائلين: "إذا أردنا السَّفر لأمرٍ مهمٍّ كتسجيل أرضٍ، أو النَّظر في قضية طلاقٍ فإنَّنا نركب حميرنا ضحىً كاملًا ثم نأخذ الباخرة من المحطَّة في البلد المجاور. لقد اعتدنا يا بنيَّ على ذلك؛ بل نحن من أجلِ هذا نربِّي الحمير"(١)، فكأنَّ الأمر لا يعدو أمرًا مهمّا، ولا يشكِّل قضية بالنسبة لهم، ولا يقدِّم لهم مقترح تطوير مجتمعهم أيّ جديد، فهم مستعدون لركوب وسيلتهم البدائية – الحمير – الساعات الطوال دون ملل أو ضجر لقضاء حوائجهم الضرورية، وبذلك فضَّلوا زيارة ضريح ود حامد كل أربعاء – كما وجدوا آباءهم يفعلون ذلك من قبل – على أنْ يتطوَّر المجتمع، ويتمَّ إنشاء بعض المشاريع فيه.

ويظهر القاصُّ بساطة هذا المجتمع، وسذاجة أفراده في ذلك الزمن، فقد حمدوا الله على ذهاب المطالبات الحكومية بإنشاء المشاريع في تلك الدومة، ورضوخهم لمطالب الشعب بترك دومتهم لهم ولمعتقداتهم الخيالية، فيقول السارد على لسان أحد أفراد تلك الدومة: "وحمدنا الله أنْ كفانا مشقَّة مصافحتهم. عادتْ حياتنا إلى سيرتها الأولى، لا مكنة ماء، ولا مشروع زراعة، ولا محطَّة باخرة، وبقيتْ لنا دومتنا تلقي ظلَّها على الشاطئ القبلي عصرًا، ويمتدُّ ظلُّها وقت الضحى فوق الحقول والبيوت حتى يصلَ إلى

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٤١.

المقبرة"[١]، وهكذا ذهبت مشروعات التطوير على أبناء المجتمع السوداني، فالمشاريع الزراعية ذهبت أدراج الرياح، ومحطة الباخرة لن يتمَّ إنشاؤها، وكل ذلك بسبب هذه الدومة التي اعتقدوا فيها اعتقادات باطلة، ولكنهم يكتشفون حين تقطع الشجرة نهاية المطاف أنَّ ما يخشونه لا يعدو كونه من الأوهام التي علقت بعقول أبناء المجتمع ونفوسهم[٢]، ولن يتمَّ التطور إلا إذا ذهبت هذه المعتقدات، "فقلتُ له: ومتى تقيمون طلمبة الماء والمشروع الزراعي ومحطَّة الباخرة؟ فأطرق برهةً ثم أجابني: حين ينام النَّاس فلا يرون الدّومة في أحلامهم"[٣]، وقد اعتمد السارد على التنويع في أسلوبه القصصي من أجل التنويع في المواقف والأصوات بدل أن تأتي القصة على رتابة واحدة، ولذلك جاء بأسلوب الحوار الخارجي القائم بين فرد من أفراد المجتمع الذين يعنيهم تطور مجتمعهم وبين أحد أفراد الحكومة في إظهار سبب عدم التطور، وكيف لهم أن يحقّقوا تقدمًا في مشاريعهم الزراعية، والتجارية وغيرها، وقد التزم السارد بسمات الحوار الجيد، فكان حوارًا قصيرًا مركَّزًا، مساعدًا على انسياب السرد، وشدِّ انتباه القارئ[٤]، كما أنَّ القاصَّ اتكأ على أسلوب الاستفهام

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٤٨.

(٢) انظر: د. إبراهيم خليل، تأملات في السرد العربي، ص١٧٣.

(٣) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٤٨.

(٤) انظر: د. عادل فريجات، الخطاب وتقنيات السرد في النص الروائي السوري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٩م، "سلسلة الدراسات رقم: ٥"، ص ٢١٠.

الذي نبع من غَيرة مواطنٍ صادق طال انتظاره في سبيل تطوّر مجتمعه، سائلا عن الوقت المناسب الذي سيكون فيه ذلك التقدم والازدهار!

د – الألقاب الاجتماعية:

من خصائص المجتمع السوداني حب إطلاق الألقاب على أفراد مجتمعهم، وذلك من باب التلطّف والأدب وحبِّ بعضهم لبعض، وهو مظهر من مظاهر تلاحم المجتمع، وترابط أفراده.

وتأتي الألقاب من باب الظرافة والفكاهة؛ ففي إحدى قصص "دومة ود حامد" يحكي أحد أفراد المجتمع السوداني حكاية عن نفسه، يذكرها السارد على لسان ذلك الرجل قائلًا: "وكذَّابٌ مَنْ قال إنه صارعني فصرعني، كانوا يسمُّونني "التِّمساح"، مرَّة عِمْتُ النيل أدفع بصدري مركبًا موسوقةً قمحًا إلى الشاطئ الآخر ليلًا، وكان على الشاطئ الآخر رجالٌ على سواقيهم. فلمَّا رأوني أدفع المركب نحوهم ألقوا ثيابهم وفزعوا وفرُّوا. فناديتهم: يا قومُ ما لَكمْ قبَّحكم الله؟ ألا تعرفونني؟ أنا التِّمساح. أنتم والله الشَّياطين تخاف من خلقتكم القبيحة"(١)، ويعتمد السارد في كلامه على أسلوب النداء "يا قوم"؛ لتطمئن نفوس الآخرين بأنه رجل من جنسهم، ومخلوق مثلهم، وليس من عالم آخر، كما يتكئ على الاستفهام الإنكاري؛ لتهدئة روعهم، وبعث الطمأنينة في قلوبهم، كما جاءت تقنية "الوصف" التي يتكئ عليها الطيب صالح في أسلوبه القصصي كثيرًا من أجل لفت انتباه هؤلاء الرجال الذين أصابهم الذعر

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٤٢.

والخوف، وولوا هاربين، وتقريب الصورة الجمالية للمتلقي وهو يستمع إلى قصة كأنها ماثلة أمامه، بل إنه استخدم عنصر "المبالغة" عندما ذكر أنَّ الشياطين تخاف منهم، وهو في ذلك يحاول أن يشدَّ بأسلوبه القصصي ذهنَ المتلقي ويحفّزه على متابعة هذه القصة الفكاهية والتي تعطي انطباعًا عن أخلاقيات المجتمع السوداني وظرافته من خلال حشد جملة من الأساليب التشويقية التي تسترعي السمع، وتشد الانتباه، وتجعل المتلقي يسارع في المشاركة في إتمام أحداث القصة، ويتوقع نتائجها قبل أن يصل إلى قراءتها، وهذا في غاية الفنِّ وجماله.

وكان أفراد المجتمع السوداني يطلقون الألقاب على بعضهم، ومن ذلك الألقاب التي تحكي صفة الشخص نفسه، وطبيعة حياته، وما يحيط به من ظروف اجتماعية، فشخصية الشيخ محجوب عاشت حياتين: حياة الغنى والرفاهية، وحياة الفقر والعدم، فكان في كلِّ حياة مرت به يُطلق عليه أفراد مجتمعه لقبًا معينًا يتناسب مع حالته الاجتماعية التي يعيشها، يذكر ذلك السارد بقوله: "حتى لقِّب بالظَّريف بعد أنْ كان يلقَّب بالغبيِّ"(١)، فحياة الغِنى يتناسب معها لقب اجتماعي يليق بهذا التاجر وهي صفة الظرافة، فلا يستطيع أحد – حينئذ – أن يصفه بالغباء، لتعارض الحالتين: حالة الغنى، وحالة الغباء، أما حالة الفقر وسوء الوضع الاجتماعي الذي مرَّ على محجوب فقد كان ينعته أفراد المجتمع – حينئذ – بصفة الغباء؛ زيادة في سوء تصوير

---

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٨.

حالته الاجتماعية، ووضعه النفسي الذي يحيط به، وليس معنى ذلك أنهما سمتان متلازمتان، ولكن المكانة تكون في نظر أعين أفراد المجتمع أقل من الرجل الغني الذي يقدرونه، ويعلون من شأنه.

ذ – الجانب الثقافي:

تساعد الثقافة أفراد المجتمع على معرفة السلوك المقبول من غيره، وتسهم في تشكيل كثير من الظواهر الاجتماعية، وتختلف من مجتمع لآخر، وهي جملة من المعلومات والمعتقدات والعادات التي يكتسبها الإنسان بصفته أحد أفراد المجتمع، كما أنها تمثِّل نمطًا من التفكير والسلوك الذي يتبنَّاه مجتمع بأكمله أو جزء منه(١).

وقد ذكر الطيب صالح في مجموعته القصصية بعضًا من السمات الثقافية لأبناء المجتمع السوداني، فهناك عناية خاصة بالقرآن الكريم وتعلّمه، وتربية الأبناء على حفظه، ففي تعلّمه فلاح في الدنيا وفوز في الآخرة، وهو دستور هذه الأمة، وكتابها الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولذلك يحرص الجميع على تعليم أبنائهم القرآن الكريم، وحفظه، يقول الكاتب على لسان أحد صغار المجتمع السوداني: "العجيب أنني لم أكنْ أخرج أبدًا مع أبي، ولكنَّ جدي كان يأخذني معه حيثما ذهب إلَّا في الصباح حين كنتُ أذهبُ إلى المسجد لحفظ القرآن"(٢)، وهنا تكمن أهمية حفظ القرآن الكريم، إذِ

(١) انظر: د. مختار محمد، د. فاطمة عبدالسلام شربي، مدخل إلى علم الاجتماع، دار غريب، القاهرة، د.ت، ص٧٣– ٧٤.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٣.

استثني وقت الذهاب إلى المسجد من مرافقة الصبي لجده؛ استشعارًا بوجوب التردّد على المسجد لتربية هذا الصبي تربية حسنة قائمة على تعاليم القرآن الكريم وتوجيهاته.

كما أنَّ هناك فئة منهم طلبوا العلم والمعارف في الغرب، وخاصة في إنجلترا، فسافروا إليها لدراسة علوم متنوعة، فالسارد يحكي في قصة "دومة ود حامد" عن أحد أفراد مجتمعه الذي ينتظر قدوم ابنه من الدراسة لعل التطور يلحق بالمجتمع عند عودته، وعودة كثير من الأبناء الذين التحقوا في الدراسة مغتربين عن وطنهم ومجتمعهم، وبذلك تمتزج العلوم والمعارف الجديدة مع ما لدى الرجل السوداني من أخلاق عالية، وحب لوطنه لتكون عاملا من عوامل بناء المجتمع.

ومن الأمور الثقافية التي ذكرها القاص: المتاحف السودانية، فهي معلم من المعالم التي يتسم بها البلد، وقد طلب الرجل المسن من السائح أن يذكر بلده بالخير، ولا تكون زيارته قد أعطته انطباعًا عامًا سيئًا، فهناك ما يسر، ومن ذلك المتاحف الموجودة في البلد، يقول السارد: "سترحل في غدٍ يا بني – إني أعلم ذلك ولكنْ قبل أنْ ترحلَ دعني أُريك شيئًا واحدًا – قلْ إننا نعتزُّ به. عندكم في المدن المتاحف – أماكن تحفظ تاريخ القطر والأمجاد السالفة. هذا الشيء أُحبُّ أنْ أُريكه، قلْ إنه متحف. شيء واحد نصرُّ أنْ يراه زوّارنا"[1]، وتظهر أهمية المتاحف في حفظها لتراث المجتمع، وفيها حكاية

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٣٦.

الآباء والأجداد الأقدمين، وهي رمز من الرموز التي تحفظها الشعوب، وتدل على أصالتهم وثقافتهم، وترشد إلى عاداتهم وتقاليدهم.

ر – الملابس الرجالية:

للرجل السوداني ملبوسه الخاص الذي يميزه عن غيره، فهو يتميز بعمامته البيضاء الطويلة التي يلفّها حول رأسه، مع الثوب الأبيض الواسع الفضفاض، وقد أبان عن ذلك الطيب صالح في أثناء حديثه عن الزيِّ الذي يلبسه التاجر حسين، إذْ يقول: "والحقُّ أنَّ حسين التاجر بثيابه البيضاء الفضفاضة... وعمامته من الكرب نمرة واحد"(١)، وهذا هو الملبوس الذي يفخر به الرجل السوداني ويعتزُّ به، ويميزه عن غيره من أفراد المجتمعات الأخرى بهيئته ووقاره، فهو من العادات والتقاليد الاجتماعية التي يحرص كل فرد سوداني على التقيد بها، وخاصة في مناسباتهم الرسمية(٢)، وهذه العمامة ليست وليدة العصر الحديث، فهي من مأثور ملبوسات الرجل العربي منذ القدم، فعندما تولى الحجَّاج بن يوسف الكوفة اعتلى المنبر، وتمثّل قول سُحيم بن وثيل الرياحي:

أنا ابنُ جَلَا وطلَّاع الثنايامتى أضعِ العمامةَ تعرفوني(٣)

وقد حافظ الرجل السوداني على لبس العمامة مع تميزٍ في طولها، وهيئتها التي تختلف عن الآخرين من الشعوب الأخرى التي تلبس العمامة أيضًا،

---

(١) السابق، ص٤١٣.

(٢) انظر: حسن محمد جوهر وآخرون، السودان "أرضه وتاريخه وحياة شعبه"، ص١٤٧.

(٣) الأصمعي أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك، الأصمعيات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، عبدالسلام هارون، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص١٧.

فأصبحت سمة اجتماعية دالة على الرجل السوداني بلونها الأبيض المميز الذي يفخر به، وفي هذه العمامة فوائد عدة، فهي تقي صاحبها من شدة الحرِّ، وخاصة أنَّ اللون الأبيض يعكس حرارة الشمس ولهيبها، وفي العمامة زينة وجمال خاص، ومن خلالها تتحدَّد هوية الرجل السوداني الوطنية التي تميزه عن غيره.

كما أنَّ هناك فئة أخرى من الرجال الذين خالفوا الزَّي الوطني مما يميز الشخصية السودانية عن غيرها، وخاصة طلاب الجامعات والمدارس، وكثير من سكان المدن وموظفي الحكومة(١)، وكذلك الأبناء الذين سافروا للغرب، إما للدراسة أو لأيِّ أمر آخر، فلبسوا اللباس الإفرنجي المعروف، يصور السارد ذلك في قصته الموسومة بـ"رسالة إلى إيلين"، إذ يقول على لسان المرسل: "ربطة العنق التي اشتريتها لي في العام الماضي في بوند ستريت، وجدتها مع خمس كرافتات أخرى، خمس كرافتات تكفيك"(٢)، وهذه الملابس تخضع للجمال والانتقاء، فهناك جمال في شكلها، وفي لونها، ويصور القاص جمال إحداهنَّ بقوله: "ربطة عنقٍ قرمزية اللون واحدةٌ من ملايين الأشياء الصغيرة التي تشدُّ قلبي"(٣)، فهي تملك قيمة عالية نظير ما تحمله من ذكرى عزيزة في قلبه، وفيها شعور بالارتياح النفسي كلما نظر إليها.

(١) انظر: حسن محمد جوهر وآخرون، السودان "أرضه وتاريخه وحياة شعبه"، ص١٤٧.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٩.

(٣) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٩.

ز – وسائل التنقل:

يستخدم أفراد كلِّ مجتمع وسائل نقل معينة في تنقلاتهم لقضاء حوائجهم اليومية، وتختلف هذه الوسائل من مجتمع لآخر، وتغلب إحدى الوسائل على غيرها لتكون هي الوسيلة الغالبة في التنقلات، وذلك حسب طبيعة كل مجتمع، وقدرته المالية، وطبيعة أراضيه الصحراوية أو البحرية، وغير ذلك من العوامل المؤثرة في طبيعة تلك الوسائل.

وفي قصص "دومة ود حامد" فإنَّ السارد قد ذكر أنَّ "الحمير" هي الوسيلة الأولى للمجتمع السوداني لقضاء حوائجهم اليومية، فهي الوسيلة الرسمية لهم، وكانوا يؤثرونها على غيرها، ولا عيب في ذلك ولا خجل ما دامت تفي بحاجتهم، ولا تتركهم أسرى في منازلهم دون طلب الرزق، وقضاء الحاجة؛ بل إنها وسيلة طبقات المجتمع بمختلف أصنافه، فالتاجر يستخدم هذه الوسيلة في قضاء حاجاته، يقول السارد مصورًا وسيلة تنقّل التاجر حسين: "وتململَ حمارُ حسين التاجر في وقفته. ولم يكنْ صاحبه قد ترجَّل عنه"[1]، وبذلك تظهر بدائية الوسائل المستخدمة لأبناء المجتمع ما دامت طبقة الأغنياء المترفة تستخدمه وسيلة لها في أثناء تنقلاتها اليومية، ويغلب ذلك في المناطق الريفية أكثر من غيرها.

ويضع هؤلاء الأفراد عنانًا للحمار كي يساعدهم على السرعة متى ما رغبوا في ذلك، وقد صوَّر القاصُّ التاجرَ مع حماره عندما أراد أن ينطلق به

(١) السابق، ص٤١٣.

بسرعة قائلا: "وجذب التاجر عنان حماره في صلف، ثم همز بطن الحمار بكعب رجله"[١]، كناية عن رغبته في مغادرة المكان مسرعًا عن طريق ضرب بطن الحمار بقدمه، وإظهارًا لحالته النفسية البائسة عندما رفض بائع التمر إتمام صفقة البيع.

وينفي السارد وجود الوسائل الحديثة في مجتمع "دومة ود حامد" الريفي في أثناء تلك الحقبة الزمنية، فهو يتحدَّث على لسان أحد كبار السن قائلًا: "يا ليت يا بنيَّ، يا ليت ... الطرقات المرصوفة في المدن، المواصلات الحديثة، العربات الجميلة المريحة. ليس عندنا من كلِّ هذا شيء، نحن قومٌ نعيش على الستر"[٢]، فالسارد يستخدم أسلوب التمني، للتعبير عن واقع المجتمع الذي أنهكته وسيلة تنقلاته البدائية، ويتمنى لو أنَّ مجتمعه تقدَّم للأمام، وخطا خطوة في توفير الوسائل المريحة في التنقلات، وتمَّ تجهيز الطرقات لها، ولكن ذلك لم يأت أوانه! كما جاء أسلوب التكرار معزِّزًا لتلك الأماني البعيدة التي يتحدَّث عنها الرجل، فهو لا يرى أملًا قريبًا في التطور، والنهوض بوسائل حديثة في المواصلات.

أما السفن فهي من الوسائل المريحة التي يلجؤون إليها عند الحاجة إلى التنقل من جزيرة إلى أخرى، ولكنها وسيلة محدودة الاستخدام، ولا يأتون إليها إلا عند الضرورات، وخاصة في أثناء رغبتهم التنقل من جزيرة إلى أخرى، لإكمال معاملة لهم في إحدى الدوائر الحكومية.

---

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٠.

(٢) السابق، ص٤٣٦.

س – المهن الاجتماعية الشريفة:

تنوَّعت المهن والحرف في المجتمع السوداني من خلال المجموعة القصصية في "دومة ود حامد"، وغالب هذه الحرف تتركز في الريف السوداني، وأهمها: مهنة الفلاحة، وهي من المهن التي تردَّدت في الأدب العربي الحديث، شعره ونثره. فأسرة محجوب أسرة تمتهن هذه الحرفة، وهي مصدر رزقها الوحيد، ويتذكَّر محجوب أيام عمله في مزرعة والده، ويسترجع تاريخه الماضي أيام شبابه متحدثًا عن نفسه قائلًا: "لقد كان يومئذٍ شابًا قويًا أعزب لم يبلغِ الثلاثين بعد، يعمل في ساقية أبيه مقابل كسوته وشرابه"(١)، وفي ذلك إشارة إلى تربية الأبناء على كسب الرزق الحلال، فالابن يساعد والده في حقله الزراعي، والوالد يكافئه على ذلك، مع أنَّ طاعة الوالد واجبة على الأبناء، وكسوة الأبناء وشرابهم واجبة على الوالد، ولكن الانتماء إلى هذه المهنة جعل الوالد يحبيها في أبنائه، ليدركوا أثرها في جلب الرزق لهم، وقضاء ما يحتاجونه في حياتهم من مأكل ومشرب وملبس.

كما أنَّ ابن عمه إسماعيل يمتهن الحرفة نفسها، ويصوّر محجوب أحد المواقف مع ابن عمه عندما مرَّ به ذات صباحٍ مشرقٍ وكان يعمل في مزرعته يقلع الشتلة ويزرعها في مكان آخر، ولفت نظر محجوب إحدى الشتلات الصغيرة التي رماها ابن عمه لأنها لا تصلح حسب تقديره، ولكنَّ محجوبًا أخذها وغرسها جانب السَّاقية وهو يضحك عليه، وبعد فترة أثمرت النخلة،

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٥.

فكانت سببًا في غناه، وبنى لنفسه بيتًا يُؤويه مع أسرته[١]، وهذا يدلُّ على أنَّ أبواب الرزق مفتوحة، ويأتي من أيِّ باب يقدِّره الله حتى وإن كان من عمل صغير، مما يدل على وجوب تقدير نعم الله وتعظيمها، صغيرة كانت أو كبيرة.

وتمثِّل مهنة تربية الحيوانات إحدى المهن التي يحترفها أفراد الريف السوداني، وقد أبان الطيب صالح عن هذه الحرفة من خلال تربية محجوب وابنه حسن للأغنام، يقول السارد: "وأصاب السَّهمُ الأخير النعجةَ البرقاء التي ربَّاها حسن، وجمع لها الحشيش وأشركها طعامه وأنامها في فراشه"[٢]، ومن شدَّة تعلُّق هذا الصبي بتربية الأغنام أنه أصبح يعاملها كفرد من أفراد الأسرة في الأكل والنوم، ولا شكَّ أنَّ هذه النعجة البرقاء لها سمات خاصة، ومكانة كبيرة في نفس هذا الصغير، وهذا اللون محبَّب لدى أصحاب الأغنام، وهي سمة جمالية فيها، وقد كان والده أشد تعلُّقا بالأغنام منه، فكان يملك قطيعًا من الأغنام، "اشتراها بما تجمَّع عنده من ثمنِ حيضان البصل، كان يُعاملها كما يُعامل أبناءَه، يحلب لبنها بنفسه ويكوِّم القشَّ في مراحها ويفكُّ لها صغارها ويلبث السَّاعة والسَّاعتين يُداعبها وينظِّف وبرَها، وتغمره السَّعادة وهو يُشاهدها تُناغي صغارها وتشرب الماء المخلوط بالدريش، وتَتَناطح فيما بينها"[٣]، فهي كل شيء في حياة هذا الرجل، يقضي جلَّ وقته بينها، وينصبُّ جهده تجاهها، وقد استخدم السارد الأفعال المضارعة بكثرة:

---

(١) انظر: الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٥، وكذلك: ص ٤١٨.

(٢) السابق ، ص٤١٧.

(٣) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٧.

"يحلب، يكوِّم، يفكُّ، يلبث، يداعب، ينظِّف، تغمره، يشاهد، تناغي، تشرب، تتناطح"؛ للدلالة على استمرارية عمل الفلاح معها، وتعهده برعايتها، ومراقبته لجميع أفعالها، واندماجه الشعوري مع تصرفاتها؛ لأنها تمثّل جزءًا من كيانه، فقوّته وسعادته تتمظهر في هذا القطيع من الأغنام؛ بل إنه أطلق عليها الأسماء والألقاب تعريفًا بها، وتمييزًا لبعضها، وحبًّا فيها، والإنسان يطلق الألقاب – عادة – على الشيء الذي يستظرفه ويحبه، فكانت ألقابها أنها "ذاتُ الذَّيلِ الأبيضِ، وذاتُ البقعةِ السَّوداء، والخروفُ ذو القرن المكسور، والخروفُ ذو القرون الملتوية"[1]، وفي إطلاق هذه الألقاب دلالة على قربها إلى قلب صاحبها، وتعلّقه بها حتى وإن كانت لا تعقل؛ بل إنَّ هناك من الحيوانات من يناديها صاحبها باسمها أو لقبها الذي منحها إياه فتأتي إليه مسرعة، وهذه نتيجة للحياة المشتركة، والوقت الطويل الذي يقضيه صاحبها معها، رحيمًا بها، معتنيا بكل ما تحتاجه.

كما أنَّ المجتمع السوداني اعتنى بتربية الأبقار، فالشيخ محجوب قد اشترى عجلة صغيرة، ومع مرور الأيام، وتعهده في تربيتها "استوتْ بقرةً جميلة كحيلةَ العينين لها غرَّة في جبينها تجرُّ الساقية، وتدرُّ اللبن"[2]، فهذه الحرفة فيها منافع عدَّة، فهي جمالٌ لحياة بعض الأسر، ومصدر رزقٍ لبعضهم يبيعون ما تنتجه لهم، وفيها غذاءٌ ومنافع للآخرين، وقد اعتمد القاص على تقنية الوصف في إظهار ما تملكه هذه الدابة من جماليات، وهي تقنية تلفت نظر السامع،

(١) السابق، ص٤١٧– ٤١٨.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٨.

وتستهويه لمعرفة المزيد من هذه الأوصاف التي تجعل صاحبها يتعهدها بالتربية، ويزيد من شغفه بها.

وهناك مهنة التجارة، وهي تمثِّل حرفة لبعض الأغنياء في المجتمع السوداني، ومن ذلك التاجر حسين الذي تحدثتُ عن شيء من سماته في أثناء الحديث عن التفاوت الاجتماعي، كما أنَّ الشيخ محجوبًا قد أغناه الله، وتبدَّلت حاله من الفقر إلى الغنى، وذلك بفضل تلك النخلة التي غرسها جانب الساقية، فقد استجاب الله دعاءه، وبسط له في رزقه، "وصار ثريًّا يعدُّ المال مثل أيِّ تاجر، يجلس في السُّوق منتصبًا تملؤه الثقة أمام كوم الذرة، يكيل منه للمشترين"(١)، وقد غيَّرت هذه التجارة ملبسه ومأكله ومفرشه إلى الأحسن، فقد "صار يلبس النَّظيف، ويأكل الطَّيب، وينام على الفراش اللَّين، ويتدثَّر في برد الشتاء ببطانية ثقيلة من الصُّوف"(٢)، متدثرًا بأوصاف الطبقة المخملية من المجتمع السوداني، متأثرًا بأحوالهم الاجتماعية، ومظاهرهم الخارجية، وقد انقسم أصحاب هذه المهنة إلى فئتين: فئة جشعة، تحاول استغلال الضعفاء، وكسب ما يملكونه من خيرات وإن كانت قليلة، سواء أكانت من محصول زراعي أو غيره، وفئة أخرى شاكرة لله على ما رزقها وأنعم عليها، فهي تتصدَّق، وتساهم مع أفراد المجتمع، وتعين المحتاج، وتعلم أنَّ هذا الرزق قد يتبدَّل في غمضة عين من حال إلى حال.

---

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٨.

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

ش – تقاليد الزواج:

يعدُّ الزواج ظاهرة اجتماعية في عالم الإنسان، وهو من الأنظمة الاجتماعية التي تؤدِّي وظيفة مهمة في الحياة الاجتماعية، وتساعد على الصمود في وجه التغيرات التي تحدث في المجتمع، ومن خلاله يبني الفرد أسرته، ويكوّن كيانًا مستقلا يعيش من خلاله حياته الاجتماعية الخاصة(١).

وقد صوّر الطيب صالح بعضًا من ملامح الزواج السوداني وخصائصه، ومن ذلك: زواج الأقارب، فهناك قِيمٌ يقدِّرها الشعب السوداني تتعلَّق بالناحية الاجتماعية، ويرجعون فيها إلى كبير العائلة أو القبيلة أو العشيرة، ولا يخرجون بها عن رأيه ومشورته، ومن ذلك: الزواج من خارج محيط القبيلة أو العائلة(٢)، ولعلَّ قرب الأسر بعضها مع بعض، وزيادة الترابط الأسري في المجتمع السوداني أحد أهم العوامل لمثل هذه الزيجات، فالشيخ محجوب تزوج ابنة عمه(٣)، بعد أن كان يائسًا من أمر الزواج بسبب الفقر الذي أصابه، ولكنّ حلمه تحقَّق، وأصبح ذا أسرة تملأ البيت بالأولاد، كما أنَّ ابنة الشيخ

(١) انظر: د. طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص١٦٩- ١٧٠.

(٢) انظر: مكي آدم سليمان، طبيعة المجتمع السوداني، الناشر: المؤلف، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، ص٤٨.

(٣) انظر: الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٦.

محجوب آمنة تزوجت من ابن أخته[١]، فهذه نماذج تحكي واقع الزواج السوداني، وتدلُّ على حرصهم على زواج الأقارب من بعض.

ومن خصائص الزواج في المجتمع السوداني: بعض الملبوسات المصاحبة لهذه المناسبات السعيدة، فمحجوب الذي لم يتوقَّع أنه سيتزوج يومًا من الأيام حدث ما يخالف توقعاته، يصور السارد حالة محجوب قائلًا: "غير أنه تزوَّج، ولبسَ حريرةَ العرس، وتمسَّحَ بالدّلكة، ووضع على رأسه الضريرة"[٢]، وهذه الأشياء الثلاثة: لبس الحريرة، والتمسح بخلطة الدلكة من قبل الزوج عن طريق زوجته ليلة الدخلة، ووضع الضريرة، وهي مسحوق من العطورات الجافة ذات الرائحة الزكية على رأس الزوج عادات اجتماعية، وتقاليد اتسم بها المجتمع السوداني، وحافظ عليها أفراده في مناسباتهم التي تناقلوها جيلًا بعد جيل، وفيها خصوصية لهذا المجتمع، وإعطاء طابع يتسم بتآلف الزوجين اللذين أصبحا شريكين في حياتهما الاجتماعية الخاصة.

ومن الخصائص الاجتماعية في الزواج السوداني: ما يصاحب هذه المناسبة من الأفراح، والأغاني والأهازيج من قِبل الحاضرين، وقد كانوا يقيمون حفلا ويدعون إليه أفراد مجتمعهم، ويتخلله الولائم والرقص الخاص بمناسبة الزواج[٣]، يصف الساردُ محجوبًا ليلة زواجه قائلا: "وأحاطتْ به الصَّبايا

---

(١) انظر: السابق، الصفحة نفسها.

(٢) السابق، الصفحة نفسها.

(٣) انظر: حسن محمد جوهر وآخرون، السودان "أرضه وتاريخه وحياة شعبه"، د. ن، د. ط، ١٩٧٠م، ص١٦٣.

يهزجْنَ بالأغاني. ولكَمْ شَعر بالعظمة والكبرياء وقتها"[١]، فصورة الإحاطة التي صوَّرها السارد للزوج ليلة زواجه، والتفات الصبايا وهنَّ يردِّدن أغانيهن، ويعبرن عن الفرح بهذه المناسبة تعكس حالة السرور والسعادة التي أحاطت به، وجعلته يعيش حياة سعيدة رسمتها طبيعة المناسبة الاجتماعية.

كما أنَّ محجوبًا يتحدَّث عن نفسه، ويقول إنه كان: "يرقص في الأعراس"[٢]، وهذه عادة اجتماعية يُظهر فيها الناس فرحهم في ليالي الزواج، وقد اعتاد المجتمع السوداني على هذه الإيقاعات، والرقصات الحركية التي تصاحب مناسباتهم السعيدة كالزواج وغيره من المناسبات، وأصبحت عادة اجتماعية لا يفارقونها[٣].

***

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٦.

(٢) السابق، ص٤١٩.

(٣) انظر: مكي آدم سليمان، طبيعة المجتمع السوداني، ص١٣.

المبحث الثاني: الملامح الاجتماعية المذمومة

في كل مجتمع خصائص مذمومة، فلا يوجد مجتمع مثالي خال من السلبيات والنقائص، ويحاول بعض أفراده المشاركة في إصلاح الخلل من زاويته، والأديب أحد هؤلاء الذين يقدمون وجهات نظرهم لإصلاح ما في مجتمعهم من خلل، فالطيب صالح في قصصه "دومة ود حامد" يصوِّر بعضًا من هذه الملامح المذمومة التي ارتأى خطرها على مجتمعه، ويتمنى زوالها، ومنها:

أ- الجشع:

يتكوَّن المجتمع السوداني من فئات متفاوتة في الغنى والفقر، مثله مثل أيِّ مجتمعٍ عالميٍّ تتفاوت فيه الأحوال المادية فيما بينهم، ولكن ذلك يختلف من مكانٍ إلى آخر، وتتمايز تلك الفروقات الطبقية سواء أكان على مستوى التعاون فيما بينها، أو على مستوى الفارق الاجتماعي بين تلك الفئات، وهذه حكمة قدَّرها الله في هذه الحياة، وكتب لكلٍّ رزقه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِياً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾سورة الزخرف.

وقد صوَّر الطيب صالح في مجموعته القصصية فئتين مختلفتين في المجتمع، ولكلٍّ واحدة منهما سمات تتحلَّى بها، وملامح يدركها أفراد المجتمع.

الفئة الأولى: فئة الأغنياء، ويمثِّلها التاجر حسين، وهي فئة تتسم بالجشع، وتحاول استغلال الفئة الفقيرة في شراء سلعهم بثمنٍ بخس، ومساومتهم عليها

بجنيهات معدودة، دون مراعاة الخلق الحسن في التعامل التجاري، فعندما أراد حسين أن يشتري نخلة من الشيخ محجوب قال له بأسلوبٍ يُخفي وراءه طمعًا تجاريا دون النظر إلى حاجة الطرف الضعيف في الجهة الأخرى: "عشرون جنيهًا يا رجل، تحلُّ منها ما عليك من دَينٍ، وتُصلِح بها حالك. وغدًا العيد، وأنتَ لم تشترِ بعدُ كبش الضحيَّة! وأقسمُ لولا أنني أريدُ مساعدتك، فإنَّ هذه النَّخلةَ لا تساوي عشرة جُنيهات"[1]، فالتاجر ينمّق أسلوبه بنداء الفلاح وكأنه يعنيه أمره، ويسعى إلى صلاح حاله (يا رجل!)، ولكنه نداء يبطن خلفه استغلال حالة الفلاح النفسية السيئة، ووضعه الاجتماعي المادي المأساوي، كما يتكئ التاجر في أسلوبه الحجاجي على تقنية القسم في محاولة إقناع الفلاح، وإثبات صدق كلامه، وتقديره لظروفه الاجتماعية، مدَّعيًا بذلك حرصه على سداد دينه، متبعًا القسم بتقنية حجاجية أخرى، من خلال المجيء بألفاظ التوكيد (أنَّ/ إنَّ)؛ لإثبات مصداقيته، وهو بهذه المساومة الزهيدة يحاول أن يستغلَّ طيبة الأخلاق التي يتَّسم بها محجوب ويستغفله لينال بذلك مُراده، وإلا فإنَّ حمار هذا التاجر قد سَئِم من أسلوبه، وتململ من وضعه الذي هو فيه، يصوِّر السارد ذلك الموقف بقوله: "وتململَ حمار حسين التاجر في وقفته. ولم يكنْ صاحبه قد ترجَّل عنه فإنه لم يردْ أنْ يُظهر لشيخ محجوب تلهّفه على شراء النَّخلة ذات البنات الخمس"[2]، وهذه

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٣.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٣، وقد وردت كلمه: "لشيخ" هكذا، وذلك باللهجة السودانية الدارجة.

الصفقة التجارية لا شكَّ أنها تستحق ثمنًا أكثر مما أراد التاجر أنْ يدفعه ثمنًا لها، وهذا ما جعل صبر التاجر يفوق صبر حماره الذي يُضرب به المثل في الصبر، وقد أبان السارد عن جماليات هذه النخلة بأنها ذات بنات خمس، وليست وحيدة بمفردها، فقيمتها أغلى من لو كانت وحيدة، وبلغ بهذا الحمار – وهو غير عاقل – حدّ التبرم من مساومة هذا الطمّاع لأخيه الضعيف، فيصف السارد هذا الملل والسأم من هذه المساومة، ذات الثمن البخس بقوله: "وكأنَّه قد تبرَّم بهذه المساومةِ التي لم يكنْ من ورائها طائل"(١)، وفي ذلك إيحاء إلى رأفة الحيوان مع عدم عقلانيته مقارنة بمن يملك العقل، ولكن استغلال ظروف الآخرين، وعدم تقدير أوضاعهم قد أوقع التاجر في مهلكة الجشع، وهذه صفة ذميمة يكرهها المجتمع السوداني، وينفر منها، وهي دخيلة على عاداته وتقاليده الاجتماعية(٢)؛ بل إنَّ غرور التاجر قد جعله يهدِّد الفقير بالدَّين عندما تعوزه الحاجة، ولا يكون بمقدوره مسايرة الحياة إلا سلوك هذا الباب الذي منه يأتي ذلّ التاجر وإهانته للمستدين منه(٣)، وقد أشار بعضهم إلى إمكانية اختيار اسم آخر لهذه القصة الموسومة بـ: "نخلة على الجدول" التي وردت فيها هذه المساومة، فاختار عنوانًا آخر، وهو "المنّ على

(١) السابق، الصفحة نفسها.

(٢) انظر: مكي آدم سليمان، طبيعة المجتمع السوداني، ص١٢.

(٣) انظر: الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٠.

المستضعفين"، معللا ذلك بمناسبة هذا الاسم لجوِّ القصة المحيط بها، والإفادة من القرآن الكريم الذي ورد فيه هذا الاسم(١).

كما تتميز فئة التجَّار بلباسها المخمليِّ، وهندامها النفيس، ذي الثمن الفاحش، ومركوبها الحسن الذي يتسم بسمات الكبر والغرور، يصور السارد هيئة هذه الفئة قائلا: "حسين التاجرُ، بثيابه البيضاء الفضْفاضةِ، وعباءته السَّوداء التي اشتراها في زيارةٍ له للخرطوم، وعمامته من "الكرب" نمرة واحد، وحذائه الأحمر الذي لم تُخرجْ أيدي صنَّاع "المراكيب" في الفاشِر أجود منه، وحماره الأبيض البدين اللَّامع، والسّرج الأحمر المدهن، والفروة البنّية التي تدلَّت وكادت تمسُّ الأرض، كان صورة مجسمة للكبرياء والغطرسة"(٢)، فهذه الأوصاف التي يتسم بها التاجر حسين تعبِّر عن أخلاقيات فئة في المجتمع علاها الغرور والبذخ على نفسها، وفي النقيض فإنها تساوم غيرها على لقمة عيشها، وجشعها فيما لدى الآخرين، وقد اختار السارد عدَّة ألوان في وصفه للتاجر سواء أكان لثوبه، أو عباءته، أو حذائه، وكذلك مركوبه وما وضع عليه من سرج يشي بكبريائه واستعلائه على الضعفاء وطمعه في أموالهم، حتى لكأنك ترى الصورة ماثلة أمامك يجوس صاحبها الديار حاملًا قلبًا قاسيًا لم يقدّر حياة الشقاء التي منيت بها طائفة لا حول لها ولا قوة إلا الرضا بما كتبه الله لها من أمورٍ في حياتها الاجتماعية.

---

(١) انظر: د. أحمد محمد البدوي، الطيب صالح سيرة كاتب ونص، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ص٥٥.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٣- ٤١٤.

أما الفئة الأخرى: فهي فئة الفقراء، ويمثّلهم الشيخ محجوب، وهو رجل يعول أسرة لا تملك أضحيتها يوم العيد؛ بل لا تجد ملبسًا جديدًا لها، فهي أسرة يعلوها البؤس والحرمان، وقد صوَّر القاص حال محجوب وأسرته بقوله: "إنه لا يملك ثوبًا نظيفًا يخرج به إلى الصلاة، وليس عند زوجته غير "ثوبٍ زراق" اشتراه لها قبل شهرين نال من البلى وتراكمتْ عليه الأوساخ. أمَّا ابنته خديجة فقد كادت تفتّت قلبه ببكائها من أجل ثوبٍ جديدٍ تعرضه على لداتها وتعيّد به مع صاحباتها. ومن أين له جُنيهات ثلاثة يشتري بها خروفًا يضحِّي به؟"[١]، وقد اعتمد السَّارد في بيان حالة محجوب الاجتماعية على أسلوب النفي، فهو ينفي عنه امتلاك الأضحية، وينفي عنه استطاعته الحصول على ملبسٍ جديد ليوم العيد، ثم يتكئ السارد على الاستفهام الإنكاري الذي ينكر قدرة محجوب على توفير ثلاثة جنيهات لأضحيته، ولكن هذا الفقر عفيف النفس، جعل من أسرة محجوب تكابد الفاقة وتتجمَّل بأخلاقيات راقية، وقد بلغ الفقر بمحجوبٍ مبلغه، وزاد من سوء حالته الاجتماعية أنه أصبح وحيدًا يكابد الفقر والحاجة بعد سفر ابنه وانقطاعه عنه، يقول السارد: "وهكذا ظلَّ محجوبٌ يكابد الفاقة وحده، فاستدان ورهن وباع. وليس عنده اليوم من مال الدنيا إلا بقرة واحدة، وعنزتان وهذه النخلة التي ظلَّ جاهدًا يحاول استبقاءها"[٢]، فهذه الحال التي

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٤- ٤١٥.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٩.

وصلت بالأسرة إلى الاستدانة من الآخرين، ثم رهْن ما تملكه لهم، وانتهاء ببيعه من أجل قضاء حاجات أسرته الضرورية تمثّل صورة بليغة تحكي صورة من صور الفقر والعدم لفئة من فئات المجتمع التي حُرمت من شفقة فئة ابتليت بداء الكبر والجشع.

ب – عقوق بعض الأبناء:

يوجد في كلِّ مجتمع بعض الخصائص السلبية التي يتصف بها بعض الأفراد، وقد تكون ظاهرة في الأفق، وقد تكون نادرة الوقوع، ومن سلبيات المجتمع السوداني التي أشار إليها الطيب صالح عقوق بعض الأبناء، فالابن حسن من هؤلاء الذين اتصفوا بذلك، فوالده يتمنى لو أنه كان بارًّا به، عطوفًا عليه، يقول السارد على لسان الشيخ محجوب: "ليت حسنًا كان مثلها عطوفًا بارًا"(١)، فهو يستخدم أسلوب التمني في أثناء حديثه عن ابنه، وبهذا يكون قد بلغ في العقوق عتيّا، على الرغم من عناية والده به عندما كان صغيرًا، فقد كان يساعده في مزرعته، وتربية أغنامه، ولكنه عندما كبر، وسافر إلى الدراسة في مصر انقطعت أخباره، يقول السارد: "حسنٌ ابنه الوحيد، سافر قبل خمسة أعوامٍ إلى مصر، ومن وقتها لم يرسلْ لهم حتى خطابًا واحدًا يُطَمئنهم فيه عن صحَّته"(٢)، وتظهر شدة جرْم هذا الابن بأنه وحيد والده، وليس له ابن غيره، مما كان يلزمه بره، ويتأكَّد حينئذ اهتمامه وعنايته بوالده،

(١) السابق، الصفحة نفسها.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤١٩.

ولكن التوفيق جانبه، والعقوق لازمه من خلال انقطاعه التام عن والده، فخطاب واحد لا يكلّفه عناء ولا مشقة، ومع ذلك حُرم منه، وقد أُصيب والده بصدمةٍ كبيرة، كيف لهذا الابن الذي شبَّ يافعًا بين أحضانه، كيف له أن "يشبَّ عن الطوق، ويهجرَ الأهل والدَّار، وينسى حقوق الأبوَّة، ولا يسألُ عن الأحياء ولا الأموات"(١)، ويأتي السارد بجملة من الأفعال المضارعة (يشب، يهجر، ينسى، يسأل)؛ للدلالة على استمرارية عقوق الابن، وطول فترة غيابه عن والده، وهؤلاء الأبناء يربون في الصغر من قبل آبائهم حتى يكونوا ساعدًا لهم عند الكبر، ولكن هذا الابن خذل والده، يصور القاص ذلك بقوله: "وفي غمرةِ أتعابه، ومرير شيخوخته هجره ابنه حسن، وهو أحْوج ما يكون إلى ساعده الفتى"(٢)، ويصوّر السارد شدَّة حاجة الوالد المسنِّ لابنه الشاب في حالتين هزيلتين: عندما تكون حالته الصحية والجسمية في تعبٍ شديد، وفي أثناء بلوغه سنّ الشيخوخة التي يحتاج فيها الرجل الكبير إلى مَنْ يساعده وخاصة أقرب الناس إليه وهم أولاده، ولكن حالة العقوق تطغى على قلب الابن العاق تجاه والده الكبير، وكأنه بذلك تناسى وصية الله للإحسان بالوالدين وخاصة عند بلوغ الكبر.

ولم تكن حالة حسن السيئة مع والده حالة خاصة، فهناك صور أخرى في المجتمع السوداني، يصوّر ذلك الكاتب في قوله: "وفي بيتِ (ناس ستِّ

(١) السابق، ص٤١٧.

(٢) السابق، ص٤١٩.

البنات) انتظر محجوبٌ بين صفوف المستقبلين. وفي غمرة اضطرابه لم يفتْ عينه المستطلعة رجالٌ يعرفهم جاؤوا يسألون عن أبنائهم وأقاربهم، ونسوة يعرفهنَّ جِئنَ يسألْنَ عن أزواجهنَّ وأبنائهنَّ"[١]، فتصوير حالة الزوجات في انتظار أزواجهن، والآباء في انتظار الأبناء والأقارب، والأمهات في انتظار الأبناء صورة تشي بالحزن والكآبة، والقلق والاضطراب، ويعيش صاحبها تحت أزمة نفسية شديدة، وتدلُّ على عدم وفاء الطرف الغائب لمن احترق قلبه، وتعب عليه في الصغر، وأعدَّه للكبر، ولسداد الدَّين عندما تعوز الشيخوخة صاحبها، ويحتاج حينها الوالد إلى الأبناء لخدمته وقضاء حوائجه.

ت – الخمول والكسل:

يعدُّ الخمول من الصفات المذمومة في الحياة الاجتماعية، فهو مضيعة للوقت، مفسدة له، وتمرُّ الأوقات دون تحقيق ما يعود على الفرد والمجتمع بالخير والنفع.

وقد ذمَّ الطيب صالح في مجموعته القصصية الخمول، وحذَّر منه، وأبان عن كرهه للرجل الخامل، لما له من سلبية على نفسه وعلى مجتمعه، فقد حكى السارد عن الصبي الفطن عندما سأل جدّه عن جاره مسعود والعلاقة بينهما بقوله: "أظنّك لا تحبُّ جارنا مسعود؟ فأجاب بعد أنْ حكَّ طرف أنفه بسبَّابته: لأنه رجلٌ خامل، وأنا لا أحبُّ الرجل الخامل"[٢]، وهذا الخمول

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢١.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٤، والصواب: مسعودا (بالنصب).

ناتج عن تفريط مسعود بالأرض الزراعية الكبيرة التي ورثها عن والده، نتيجة عجزه وكسله عن العمل فيها، فقد باع ثلثيها، وفرط بها، وقد كانت كنزًا ثمينًا لم يحسن استغلالها والإفادة منها في حياته الاجتماعية له ولأفراد أسرته بما تنتجه من محصول زراعي وفير، وقد اعتمد السارد على أسلوب الحوار بين الصبي وجده، وهو أسلوب سريع لمعرفة نتيجة التساؤل والتفكير الذي لحق بفكر الصغير، ومن خلاله تقصر الجُمل، وتتآزر مع بعضها لتخرج حبكة قصصية تشد القارئ، وقد أردف السارد – مع الحوار المتكئ على الاستفهام – أسلوب النفي في سياق ذمه الخمول، فهو ينفي محبة الجدِّ لجاره مسعود؛ لاتصافه بالخمول الذي كان سببًا في ضياع مصدر رزقه وسعادته، فكأنَّ السارد بهذا النفي – أيضًا – يعبر عن نظرة أفراد المجتمع إلى الخاملين، وكرههم لهم، وعدم إقرار صنيعهم الذي يحرم الفرد من الخير لنفسه، وكذلك مجتمعه في سبيل تطوره ونهضته وتقدمه، مع تصوير الجدِّ لحظة الإجابة عن التساؤل فهو يجيب بصورة هادئة، ممزوجة بحركة ظريفة – وهي حكُّ طرف أنفه بسبابته –، وهي تعبر عن استهجانه للصفات التي تحلّى بها مسعود، مما كانت سببًا في ضياع ثروته الاجتماعية.

د – الشغف بالزواج، والتسرع في الطلاق:

يعدُّ الزواج من الأمور التي تؤلِّف بين أفراد المجتمع ذكورًا وإناثًا، فقد ألقى الله المحبة والألفة بين الزوجين، ومن خلالهما تتكوَّن الأسر في المجتمعات، وتسودها السعادة والألفة بفضل الزواج الناجح الذي يتفاهم من خلاله الطرفان، ويؤدِّي كل واحد منهما حقَّه تجاه الآخر.

ولكن هذا الأمر ينبغي ألَّا ينقلب على عقبه، فيكون وسيلة لتأدية النزوات الشهوانية من قبل الرجال، وهذا ما ذمَّه الطيب صالح في مجموعته القصصية في أثناء حديثه عن تفريط مسعود في نخله، فقال على لسان الصبي: "وسألتُ جدِّي لماذا باع مسعودٌ أرضه؟ (النساء). وشعرتُ من نطق جدِّي للكلمة أنَّ (النساء) شيء فظيع. (مسعودٌ يا بنيَّ رجل مزواج كلُّ مرة تزوَّج امرأة باع لي فدَّانًا أو فدَّانين). وبسرعة حسبتُ في ذهني أنَّ مسعود لا بدّ أنْ تزوج تسعين امرأة"(١)، فهذه الزواجات الكثيرة، ليست مدروسة من قِبل مسعود الذي أكثر منها وأعقبها بالطلاق، مضيفًا إلى مجتمعه عبئًا اجتماعيًّا، وأوجاعًا أسرية بكثرة المطلقات، فهو أنانيٌّ لم يقدِّر حجم المسؤولية الاجتماعية، وإلا لما حصل منه ذلك الأمر، وعلى الرغم من إباحة الطلاق في الشريعة الإسلامية إلا أنَّ الله قد أبغضه، فقد روى ابن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: "أبغضُ الحلالِ إلى الله تعالى الطَّلاق"(٢)، وقد اتخذ السارد أسلوب الحوار بين الصبي وجدِّه لمعرفة السبب الذي جعل مسعودًا يبيع نخله، فهذا الأسلوب أقرب للفهم والإقناع، وإيصال النتيجة التي يبحث عنها الصغير، ورغبة في معرفة سبب تفريط مسعود في أرضه الزراعية، كما أنَّ في إجابة الجدِّ، ونطقه لكلمة (النساء) بأسلوب ساخر، ونبرة غريبة، وكذلك إيراد كلمة (مزواج) بهذه الصيغة كان

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٥، والصواب: أنَّ مسعودا (بالنصب؛ لأنه اسم أنَّ).

(٢) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، (باب في كراهية الطلاق) ج٢، ص٢٢٠.

لهما أثر في إظهار خطيئة مسعود، وتجريمه أمام الصبي الذي يريد أن يعرف سرَّ تفريط مسعود بكنز ثمين كان لزامًا أن يحافظ عليه، ويستثمره فيما ينفعه، وينفع أسرته، ولكن الأنانية وعدم اكتراثه بالآخرين كانت سببًا في ضياع ثروته.

ج – الانتهازية:

يتصف المجتمع السوداني بطيبة النفس، ودماثة الخلق، وحسن التعامل مع الناس، ولذلك فإنَّ هناك من يستغل هذه الطيبة ولا يقدّرها، ويحاول أن يستأثر بالخير لنفسه ولو على حساب الآخرين، فصاحب النخل مسعود عندما جاء وقت الصرام، جاءه التجار وكل واحد منهم يحاول أنْ يأخذ جزءًا منه بثمن بخس، وهو ضعيف لم يقوَ على مقاومتهم، وقد صوَّر السارد هذا الموقف على لسان أحد الصبية، فقد شارك جدّه معهم شراء المحصول، يقول: "ورأيتُ مسعودًا يملأ راحته من التَّمر ويقرّبه من أنفه ويشمّه طويلًا ثم يُعِيده إلى مكانه. ورأيتهم يتقاسمونه. حسين التاجر أخذ عشرة أكياس. وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا من ناحية الشَّرق أخذ خمسة أكياس. وجدِّي أخذ خمسة أكياس. ولم أفهمْ شيئًا"(١)، إنها استغلال طيبة الفلاح، وتقاسم ثرواته بمقابل زهيد لا يساوي ثمن هذا التمر، ويتكئ السارد في وصف المشهد على الصورة البصرية؛ إيغالًا في إظهار الحقيقة، وتصوير بشاعة صفة الانتهازية من قبل هؤلاء الشرذمة، مما سبب ألما نفسيًّا للفلاح المسكين،

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٧.

يسمعه من يقترب منه، ويصوّره الصبي بقوله: "وشعرْتُ بنفسي أقتربُ من مسعود... وسمعته يُحْدث صوتًا في حلقه مثل شخير الحمل حين يُذْبح"(١)، وهذه صورة مؤلمة، تثير الشفقة والحسرة، وقد اتخذ السارد بلاغة التشبيه للتنفير من صنيعهم، وإظهار قبحه، فهو يئنُّ أنينًا داخليًّا يسمعه مَنْ يقترب منه، وهو يشبه صوت شخير الحمل لحظة ذبحه، وما أقساها من قلوب! وقد أدرك الصبي الفعلة السيئة التي اجتمعوا عليها لاستغلال طيبة الفلاح الضعيف، واستهجن تصرفهم معه، وأعلن رفضه لصنيعهم، وهو الصغير سنًّا، الكبير عقلا، فقد رفض استغفال هؤلاء القوم للفلاح حتى وإن كان بعضهم قريبًا منه، "ولستُ أدري السببَ، ولكنَّني أحسستُ بألمٍ حادٍّ في صدري، وعدوتُ مبتعدًا. وشعرتُ أنَّني أكره جدِّي في تلك اللَّحظة. وأسرعتُ العدْوَ كأنَّني أحملُ في داخل صدري سرًّا أودُّ أنْ أتخلَّص منه. ووصلتُ إلى حافّة النهر قريبًا من منحناه وراء غابة الطَّلح. ولستُ أعرف السبب. ولكنَّني أدخلتُ إصبعي في حلقي وتقيَّأتُ التمر الذي أكلتُ"(٢)، وهذا التصرف العفوي من الصبي، والصورة التي سردها لنا الكاتب كناية عن التخلص من الآثام، وما اقترفه الطماعون بحقِّ محتاج ضعيف، فهو يريد أن ينجو بنفسه مع كره تصرفهم، ورفض ما قاموا به من عمل، وقد اتخذ السارد مكانًا بعيدًا لمحو ذنب ما اقترفه الطفل من مجرد مشاركته الاستغلالية بحقِّ إنسان ضعيف، وذلك في جريانه خلف الغابة ليعبر عن ندمه على فعله، ويجعل النهر يغسل

(١) السابق، الصفحة نفسها.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٧.

ذنبه، ويؤوب إلى رشده، وهذا الموقف الذي تبناه الطفل هو موقف أفراد المجتمع السوداني الذي يتسم بالأخلاق الفاضلة، ويسعى إلى محبة الآخرين ويتمنى لهم الخير، ويرفض استغلالهم، وما هؤلاء الذين قاموا باستغلال طيبة الفلاح إلا شرذمة قليلون، ولا يمثّلون المجتمع السوداني لا عددًا ولا عدَّة؛ بل وصل الأمر إلى أكبر من ذلك، فلم يكن الرفض من الصبي وحده، فقد جاء – أيضًا – من الحيوانات الخاصة بهؤلاء المشترين، يصور السارد رفضهنَّ بقوله: "ووُضِعتْ أكياسُ التَّمر على الحمير والجمال، ونهقَ أحد الحميرِ، وأخذَ الجملُ يَرْغي ويصيح"(١)، فحمار التاجر حسين يعبِّر عن رفضه لهذا الشراء بالنهيق عندما تمَّ تحريمه بالعمل، ووضع الحمل فوق ظهره، وكأنه يشارك بهذه الجريمة، ويرضى بصنيعهم، وجمل الرجلين الغريبين يشارك بالاعتراض على هذا الصنيع، ويصيح بأعلى صوته، ويرغي ويزبد كناية عن الرفض، وعدم المشاركة أو الرضا في استغلال هذا الفلاح الضعيف، وشراء محصوله بثمنٍ بخس، وهذه المشاركة الاجتماعية بين هذه الحيوانات وحال الفلاح المسكين تعكس الواقع الاجتماعي الذي يتآزر فيه الضعفاء بعضهم مع بعض، ووقوفهم خلف محنهم وظروفهم المعيشية ومواساتهم على الوضع الاجتماعي الخاص بهم.

(١) السابق، ص٤٢٧.

ح – مجتمع غير صحي:

ذكر السارد عددًا من الأمراض، والحشرات المنتشرة في المجتمع السوداني زمن كتابة مجموعته القصصية، ويأتي في مقدمتها "ذباب البقر، النمتّة، الملاريا، الدسنتاريا".

وقد جاء في المنجز القصصي للطيب صالح إشارة إلى تأخر المجتمع في المجال الصحي، فانتشار الأمراض ووجود الحشرات دليل على عدم قدرة البلد على مقاومتها، وتخليص المجتمع من خطورتها.

ويشير الكاتب إلى خطورة السياحة في بلده، فالسائح سيجد ضررًا صحِّيا نتيجة الوباء الموجود هناك، ففي فصل الشتاء هناك خطورة من حشرة "النمتّة"، يحذر منها السارد بقوله على لسان أحد أفراد المجتمع: "لو جئتَ بلدنا سائحًا، فأغلب الظنِّ يا بنيَّ أنك لن تمكثَ فيها طويلًا. تجيئنا شتاءً وقت لقاح النَّخل، فترى سحابةً داكنةً ربضتْ على البلد. ليس هذا يا بنيَّ غبارًا ولا هو بالضَّباب الذي يثور بعد وقوع المطر. هذا سربٌ واحدٌ من أسراب (النمتَّة)"[1]، فنتيجة السياحة من وجهة نظر ابن البلد أنها ستكون وباء على السائح، وسيعود أدراج الرياح نتيجة الحشرة الضارة، ويُظهِر صاحب الدار نصحًا صادرًا عن قلبٍ مخلص للسائح فهو يناديه وكأنه ابنه، وبنداء التصغير المتكرر؛ لإظهار الشفقة والرحمة عليه، فأسلوب النداء والتصغير والتكرار تجتمع معًا للدلالة على خطورة الموقف في المجتمع، فهو

(١) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٢٧.

نداء يبحث من خلاله المنادي عن نجاة الطرف الآخر، ومحاولة إنقاذه من خطر يحيط به، كما اعتمد على أسلوب النفي في إظهار نتيجة السياحة (لن تمكث فيها طويلا)، فهي نتيجة تعكس أثرًا نفسيًّا سيئًا، إذْ إنَّ قدر هذا السائح هو العودة إلى بلده سريعًا، وعدم المكث زمنًا طويلًا في سياحته؛ بسبب ما وجده من أوضاع صحية سيئة تنهك جسده، وتفتك به.

ويعتمد السارد في إظهار خطورة هذه الحشرة على أسلوب القسم، فهو يقسم بأنَّ السائح لم يشاهد مثلها قبل، يقول: "لكنَّ هذا النوع منها أحلفُ أنك ما رأيته قطُّ"(١)، ويستخدم القسم مع من يشكِّك في الخبر حتى يصدّق الكلام، ويقتنع به، ويذهب عنه الشك في مدى رؤيته لمثل هذه الحشرات سابقًا، ثم يردف القسم بذكر شاهدٍ على تلك الخطورة التي وقف عليها بنفسه، فيسرد قصة حصلت لابنه مع أحد زملائه، يقول: "أذكرُ صاحبًا لابني يزامله في المدرسة، استضافه عندنا قبل عامٍ في مثل هذا الوقت، أهله من البندر، بات عندنا ليلةً، وأصبح متورّم الوجه، محمومًا مزكومًا، وحلف لا يبيتُ ليلة أخرى عندنا"(٢)، فالاعتماد على القصة عامل حجاجي، وبرهان قوي للدلالة على خطورة الأمر، وصعوبة العيش في مجتمع يعجُّ بالحشرات، وينتشر فيه المرض.

---

(١) السابق، ص٤٣٥.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٣٥.

أما في الصيف فينتشر ذباب البقر، وهو يسبب خطورة جسيمة للإنسان، يصور ذلك السارد في أثناء حديث أحد أفراد المجتمع بعد أن حذَّر من خطورة حشرات الشتاء ليأتي التحذير من حشرات الصيف: "وتجيئنا صيفًا عندنا ذباب البقر، ذبابٌ ضخم كحملانِ الخريف، كما نقول بلهجتنا، ومن هذا البلاء أهون عليك "النمتة" ألف مرة، إنه يا بنيَّ ذباب متمرّس، يعضُّ ويلسع ويطنُّ ويزنُّ، وعنده حبٌّ عظيم لبني آدم إذا شمَّ رائحتهم لازمهم ملازمة"(١)، وقد حذَّر السارد من هذه الحشرة من خلال التشبيه بصورة مخيفة، متكئًا في مصدرها على اللهجة المحلية، إيغالًا في التخويف، وشدًّا للانتباه إلى توخِّي الحذر من الخطورة الناجمة من لسعة الذباب؛ لأنه متمرس بمشاكسة الآخرين، مع إبراز خطورته من خلال الصورة الحركية، فهو ذباب يتحرك نحو الإنسان، ويلازمه أينما يذهب، وإذا تمكَّن منه أزعجه طنينًا، وعضًّا، ولسعًا، وكأنه يتلذَّذ بتعذيبه بأيِّ أذى يستطيع أن يفعله، وهذه صورة في غاية القبح والبشاعة، فكأنَّ مهمته في هذه الحياة معاداة الجنس البشري، وإلحاق الأذى بهم، مع اتكاء السارد في إظهار الصدق في النصيحة على أسلوب النداء "يا بني"، وفي ذلك إظهار للشفقة، والخوف من المرض الناتج من هذه الحشرات، كما أنَّ القاصَّ "قد لجأ قصد الإبهار إلى تغليب الوظيفية التنبيهية في كلِّ مفصلٍ من مفاصل الحكاية، حتى يضمن التواصل:

(١) السابق، الصفحة نفسها.

تجيئنا... وتجيئنا"[١]، فالسارد قد عقد حلقة وصل لا تنفك مع السائح، فبدأ بأحد الفصول وأظهر خطورة ما فيه من حشرات وأمراض؛ ليجعل السائح يتابع حالته المرتقبة خلال الفصل الذي يليه من خلال كلمة "تجيئنا"، مما يشي بخطورة الأمر طيلة العام سواء أكان صيفًا أم شتاء.

ويستعين السارد في أثناء تصوير خطورة "ذباب البقر" بسرد قصة في مجتمعه، يقول: "مرة جاءنا واعظٌ أرسلته إلينا الحكومة ليقيم عندنا شهرًا. وحلَّ علينا في موسم لم يرَ ذباب البقر أسمنَ منه في ذلك الموسم. تورَّم وجه الرجل في اليوم الأول. وتصبَّر وصلَّى بنا صلاة العشاء في الليلة الثانية، وحدَّثنا بعد الصلاة عن مباهج الحياة في الفطرة. وفي اليوم الثالث أصابته حمى الملاريا، وأصابته الدسنتاريا، وانسدَّتْ عيناه تمامًا. زرته في عصر ذلك اليوم فوجدته طريح الفراش، يقف على رأسه غلامٌ يهشُّ عنه الذباب"[٢]، ويصور السارد خطورة تأثير هذا الذباب على المريض بقوله: "ولكنه رفع إليَّ وجهًا كأنه رئة بقرةٍ ذبيح، وكانت عيناه كما قلتُ لك مغلقتين، ولكنني كنت أعلم أنَّ وراء أهدابها مرارة"[٣]، وبذلك يظهر اعتماد السارد على التشبيه في كثير من سرده في أثناء تصوير خطورة الأمراض المنتشرة في المجتمع السوداني، ويأتي بمصادره التشبيهية من البيئة السودانية حتى تكون أقرب في إيصال المعنى إلى المتلقي، وفهم ما يريد أنْ يتمَّ إيصاله إليه، وفي النهاية فإنَّ الشيخ

(١) انظر: أحمد السماوي، في نظرية الأقصوصة، ص١٤١.

(٢) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٣٦.

(٣) الطيب صالح، الأعمال الكاملة، ص٤٣٧.

المرسَل للوعظ يلخِّص خطورة الأمراض المنتشرة في المجتمع السوداني برسالةٍ مختصرة إلى مرسليه يقول فيها: "ذبابُ البقر أكل رقبتي، والملاريا حرقتْ جلدي، والدسنتاريا غرستْ أسنانها في أحشائي. أقيلوا عثرتي يرحمكم الله. هؤلاء قومٌ لا حاجة لهم بي، ولا بواعظٍ غيري"(١)، ويعتمد الشيخ في حديثه على أسلوب الخبر بداية الكلام، لأنه يريد إخبار مَنْ أرسله بأوضاع المجتمع السوداني، وماذا عملت به حشراته من أمراض، ليتحول الأسلوب إلى الإنشائي الطلبي عن طريق أسلوب الأمر الذي يلتمس فيه الشيخ ممن أرسلوه بأن يرحموه ويعطفوا عليه مما أصابه، مع توجيه الدعاء لهم بالرحمة من الرحيم الودود على الرغم من حاجته للرحمة، وإيضاح واقع المجتمع السوداني بأنهم ليسوا بحاجة إلى أيِّ واعظ.

فهذه الأمراض التي سردها الطيب صالح في مجموعته القصصية، وبيان خطورتها تحتمل أحد أمرين، فإما أنها تحكي واقع المجتمع الصحي السيء في السودان، وخاصة الريفي منه، وكثرة الأمراض المنتشرة فيه، وخطورتها على أفراد المجتمع، وزوار هذا البلد من السائحين وغيرهم؛ ليضفي إلى عمله السردي مصداقية وقبولا لدى المتلقي، وهو ما أميل إليه، فهذه هي الرسالة الأدبية التي يملكها الأديب، ويشارك بها القرَّاء، ويحاول إصلاح أوضاع مجتمعه بأسلوبه الخاص، وطريقته البليغة، فهو يملك حسًّا خاصًّا، ورسالة هادفة يوصلها بما حباه الله من بيان وفصاحة.

---

(١) السابق، ص٤٣٧..

أو كما أشار إليه أحد الدراسين بأنَّ ذلك من قبيل الرمز لتراث القرية التي حافظ عليها أهلها من تدخل الغرباء فيها، وما هذه الحشرات في فصل الصيف والشتاء ممثلة بحشرات "النمتة، وذباب البقر" إلا جنود مجندة لطرد الغرباء عن "دومة ود حامد"، وحمايتها من أيّ تشويه قد يلحقها من الحضارة الحديثة المفروضة مما قد يفد عليها من المؤثرات الخارجية شتاء وصيفا[1]، وأرى أن هذا تفسير بعيد.

***

(١) انظر: مختار عجوبة، القصة الحديثة في السودان، ص٢١٨.

خاتمة البحث:

وبعد هذا العرض السريع عن "ملامح المجتمع السوداني في قصص: دومة ود حامد"، للطيب صالح، فقد خرجتِ الدراسة بنتائج أهمها:

- المكانة العالية التي يتمتع بها الأديب السوداني الطيب صالح، وخاصة في مجال : القصة.
- عرضت قصص الطيب صالح ملامح المجتمع السوداني بصورة تجمع بين الحقيقة والخيال، وبين الإيحاء والمباشرة، وجميع ذلك في سبيل حرص الكاتب على نهضة مجتمعه، وتطوره وتقدمه.
- صوَّر الطيب صالح المجتمع السوداني – وخاصة الريفي – من خلال مجموعته القصصية "دومة ود حامد"، وقد خرجت الدراسة بالعديد من الملامح الإيجابية التي يفخر بها كل سوداني، وتتلخّص في: وجود بعض المهن الاجتماعية، وأهمها: الفلاحة، والرعي، والتجارة التي يسعى من خلالها الرجل السوداني إلى الرزق الحلال، كما اتسم المجتمع السوداني بتقاليد خاصة في مناسبات الزواج، وتتمظهر في زواج الأقارب، وبعض الملبوسات المصاحبة للزواج، وما يصاحب هذه المناسبة من أغانٍ وأهازيج وأفراح، وهناك تسمية المولود التي يحرص عليها الفرد السوداني، فهو يحب أن يطلق اسم مولوده على مَنْ كان له فضل على والدي الصغير؛ وفاءً له وتقديرا، ومن أبرز ملامح المجتمع السوداني الإيجابية: سمة التكاتف الاجتماعي بين الأفراد، وتعاونهم فيما بينهم، وقوة ترابطهم مع بعض، كما أنَّ البر بالآباء والأجداد سمة واضحة في قصص الطيب صالح، ومن

الملامح الإيجابية: صفة العطف على الصغير ومحبته، وتشجيعه على صفات الخير وما يعود عليه بالنفع والصلاح، ومن الملامح الإيجابية أيضًا: حقوق الفرد الاجتماعية المتمثلة في مجانية التعليم، والعلاج الصحي، وكذلك طبيعة الحياة الخشنة التي يعيشها الرجل السوداني، وقوة تحمله الصعاب، وقسوة الحياة، وبساطة الإنسان السوداني، ومحبة أفراد المجتمع في إطلاق الكنى على سبيل الظرافة والفكاهة، وبروز الجانب الثقافي المتمثِّل في حرصهم على تربية أبنائهم على حفظ القرآن الكريم في المساجد، وكذلك حفاظهم على المتاحف التي تحفظ موروثهم وتقاليدهم الاجتماعية التي يفخرون بالانتماء إليها، والملابس الرجالية الخاصة بهم من خلال لبس العمامة البيضاء، والثوب الواسع الفضفاض الذي يميزهم عن غيرهم من المجتمعات، ووسائل النقل المتيسرة لأفراد المجتمع لقضاء حوائجهم وعدم ركونهم وتقاعسهم لعدم وجود الوسائل الفارهة.

- أبان الطيب صالح عن بعض الملامح السلبية في مجتمعه، مبينًا خطورتها، ومتمنيًا اختفاءها، ومنها: التفاوت الاجتماعي بين طبقتي الفقراء والأغنياء، مع ظهور العقوق عند بعض الأبناء، ولكنها صفة قليلة لا تصل حدَّ الظاهرة على الرغم من وجودها، ومن ذلك: صفة الخمول والكسل التي حذر منها وأبان عن خطورتها، وكذلك : كثرة الزواج والتسرع في الطلاق، وما يترتب عليه من مفاسد وأضرار، فهو زواج لم يبنَ على أساس من التريث والحكمة، كما أن الانتهازية واستغفال الطيبين، وخاصة فئة الفلاحين عادة ذميمة لم يرضها القاص لأفراد مجتمعه، فحذّر

منها، وهناك انتشار بعض الأمراض في المجتمع في جميع فصول السنة، مما يستوجب العمل على القضاء عليها، والسعي نحو مجتمع آمن، خالٍ من المنغصات والمكدرات.

وبعد:

فإنَّ هذا البحث قد حاول دراسة المجتمع السوداني من خلال قصص "دومة ود حامد" للأديب والقاص السوداني الطيب صالح، ولعل فيه ما يفيد القارئ الكريم، وتكون هذه الدراسة لبنة من لبنات الدراسات الأدبية النقدية لأدبنا العربي الخالد بوجه عام، والأدب السوداني بوجه خاص.

***

ثبت مصادر البحث ومراجعه

- إبراهيم خليل، تأملات في السرد العربي، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- أحمد السماوي، في نظرية الأقصوصة، مطبعة التسفير الفني، ٢٠٠٣م.
- أحمد محمد البدوي، الطيب صالح سيرة كاتب ونص، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.
- الأصمعي أبو سعيد عبدالملك بن قريب بن عبدالملك، الأصمعيات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، عبدالسلام هارون، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
- الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: شعيب الأرنؤوط، هيثم عبدالغفور، دار الرسالة العالمية، دمشق، الجمهورية العربية السورية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- حسن محمد جوهر وآخرون، السودان "أرضه وتاريخه وحياة شعبه"، د. ن، د. ط، ١٩٧٠م.
- حلمي محمد القاعود، تطور النثر العربي في العصر الحديث، دار النشر الدولي للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- طلعت إبراهيم لطفي، مبادئ علم الاجتماع، مؤسسة الأنوار للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
- طه عمران وادي، القصة بين التراث والمعاصرة، نادي القصيم الأدبي، بريدة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- الطيب صالح، الأعمال الكاملة، مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي، أم درمان، السودان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

- عادل فريجات، الخطاب وتقنيات السرد في النص الروائي السوري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٩م، "سلسلة الدراسات رقم: ٥".
- عبدالعزيز حسين الصاوي، أزمة المصير السوداني (مناقشات حول المجتمع والتاريخ والسياسة)، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- فؤاد قنديل، فن كتابة القصة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- مجموعة من الكتاب العرب، الطيب صالح عبقري الرواية العربية، دار العودة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.
- مختار عجوبة، القصة الحديثة في السودان، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.
- مختار محمد، وفاطمة عبدالسلام شربي، مدخل إلى علم الاجتماع، دار غريب، القاهرة، د.ت.
- مكي آدم سليمان، طبيعة المجتمع السوداني، الناشر: المؤلف، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

***

REFERENCES

- Ibrahim Khalil, Reflections on the Arabic Narration, Fadaat for Publishing andDistribution, Amman, Jordan, First Edition, 2011 AD.
- Abu Dawud Sulaiman bin Al-Ash'ath Al-Sijistani, Sunan Abi Dawood, Dar AlKitab Al Arabi, Beirut, First Edition, 1409 AH.
- Ahmad Al-Samawi, The Theory of Short Story, Ceresbookshop, 2003 AD.
- Ahmad Muhammad Al-Badawi, Al-Tayeb Salih, Biography of a Writer and Text, Aldar Althaqafiya for Publishing, Cairo, First Edition, 1422 AH, 2002 AD.
- Al-Asma`i Abu Saeed Abdul-Malik Bin Qareeb Bin Abdul-Malik, Al-Asma`iyat, reviewed and explained by: Ahmad Muhammad Shaker, Abdul-Salam Haroun, Fifth Edition, Dar Al Maarif, Cairo, 1979
- Al-Imam Al-Hafiz Abu Issa Muhammad bin Isa bin Surat Al-Tirmidhi, Al-Jami' (Sunan Al-Tirmidhi), reviewed, verified and commented on by: Shuaib Al-Arna`ut, Haitham Abdul-Ghafoor, Al-Resalah Al-A'lamiah, Damascus, Syrian Arab Republic, First Edition, 1430 AH, 2009 AD.
- Hassan Muhammad Jawhar et al., Sudan "Its Land, Its History, and the Life of its People", n.d, n.ed. I, 1970 AD.
- Helmy Muhammad Al-Qaoud, The Evolution of Arabic Prose in the Modern Age, International Publishing House for Publicity and Distribution, Riyadh, First Edition, 1429 AH, 2008 AD.
- Talaat Ibrahim Lotfi, Principles of Sociology, Al-Anwar Foundation for Publishing and Distribution, Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia, Second Edition, 1984 AD.
- Taha Omran Wadi, The Story. Between Traditionalism and Modernism, Al-Qassim Literary Club, Buraidah, first edition, 1421 AH.
- Al-Tayeb Salih, Complete Works, Abdul Karim Mirghani Cultural Center, Omdurman, Sudan, First Edition, 2010 AD.
- Adel Freijat, Discourse and Narration Techniques in the Contemporary Syrian Fiction Text, Publications of the Arab Writers Union, Damascus, 2009 AD, "Studies Series No. 5".

- Abdulaziz Hussein Al-Sawy, The Crisis of the Sudanese Fate (Discussions on Society, History and Politics), Sudanese Studies Center, Cairo, First Edition, 1999 AD.
- Fouad Qandil, The Art of Writing the Story, The General Organization of Culture Palaces, Cairo, 2002 AD.
- A Group of Arab Writers, A-Tayeb Salih, the Genius of the Arabic Novel, Dar Al-Awda, Beirut, third edition, 1981 AD.
- Mukhtar Ajouba, Modern Story in Sudan, House of Authorship, Translation and Publishing, University of Khartoum, First Edition, 1972 AD.
- Mukhtar Muhammad, and Fatima Abdel Salam Sharbi, Introduction to Sociology, Dar Gharib, Cairo, n.d.
- Makki Adam Sulaiman, The Nature of the Sudanese Society, Publisher: The Author, 1412 AH, 1992 AD.

***